حسن مَتِه

# متاهة الجن

«رواية»






ترجمة

جان دوست

حسن مَتِه




# متاهة الجن

رواية

ترجمة: جان دوست

مراجعة: كاميران حوج

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

PK6908.9.M48 L312 2013

Hesenê Metê, 1957-

[Labîrenta Cınan]

متاهة الجن : رواية / تأليف حسن مته ؛ ترجمة جان دوست. مراجعة كاميران حوج-
أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة و الثقافة، كلمة، 2013.
ص. 246 ؛ 13×19 سم.
ترجمة كتاب : Labîrenta Cınan .
تدمك: 978-9948-17-183-6
أ-دوست، جان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الكردي:
تمت الترجمة عن الطبعة الثانية: دار آفستا، اسطمبول 2000
Hesenê Metê
Labîrenta Cinan
© Hesenê Metê-Avesta
"تعويضا عن حقوق التأليف والطبع للطبعة الثانية طالب المؤلف بحفنة من تبغ بدليس"



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

# متاهة الجن

رواية

## مقدمة المؤلف للطبعة العربية

من الصعب جداً على الكاتب أن يتحدث عن نتاجه. لكنني سأفشي لكم بسر وهو أني حالما أرى غلاف هذا الكتاب، أي «متاهة الجن»، يعتريني حزن شديد. لن أحدثكم عن مضمونه فهو بين أيديكم الآن، لكنني سأروي لكم قصة ولادة هذه الرواية.

كنت في حوالي العاشرة من عمري في الصف الثالث الابتدائي. وكان قد جاء إلى قريتنا معلم مدرسة شاب مع زوجته الشابة من الأكراد الرحل. كان المعلم رجلاً شهماً وإنساناً طيباً عذب الكلام ويتحدث بلغة قريتنا، أقصد أنه كان يتحدث باللغة الكردية.

بعد سنتين أنهيت تعليمي في القرية ورحلت إلى مدينة ميرسين على البحر الأبيض المتوسط لإكمال الدراسة فيها. في تلك السنوات حدثت في بلادنا أمور كثيرة فلم أستطع العودة إلى القرية ثانية. وبسبب أحداث مأساوية ومشؤومة خرجت في نهاية الأمر من بلدي وهاجرت إلى شمال الدنيا. إلى ستوكهولم عاصمة السويد.

بعد مرور ستة عشر عاماً على مغادرتي للقرية، صادفت في السويد سيدة من قريتنا. جئنا على أيامنا السالفة في القرية، وسألتها عن ذلك المدرس وأوضاعه. فقالت لي إنه ما يزال في القرية لكنه أصيب بلوثة

جنون! وحينما سمعت ذلك اجتمعت في رأسي فكرة هذا الكتاب الذي بين أيديكم، رواية متاهة الجن. كان ذلك عام 1985.

مضى زمن طويل حتى اختمرت قصة المدرس في شكلها الأدبي وكان ذلك في عام 1994 حيث حولت القصة الحقيقية للمدرس إلى رواية. كانت الجملة الأخيرة في المسودة الأولى للرواية تتحدث عن انتحار المدرس شنقاً بسبب حالته النفسية المتدهورة. لكن هذه الجملة كانت ثقيلة الوطء علي. لم أشأ أن يموت بطل روايتي في النهاية بل تركته هكذا يتخبط في حالته النفسية البائسة. فصدرت الرواية بتلك النهاية في ستوكهولم باسم متاهة الجن.

كان عام 2000 عاماً مميزاً لجميع الناس. عاماً غامضاً ملبداً بغيوم الخوف والترقب والأمل. دعاني أحد الأصدقاء من مدينة كارلشتات الألمانية لإحياء حفل رأس السنة عنده فلبيت دعوته. كانت تلك السيدة التي سألتها عن أحوال المدرس، هناك بالصدفة. وللمرة الثانية سألتها عن أوضاع المدرس وما هي آخر أخباره. أخبرتني أنه انتحر شنقاً!!

أصبت بذهول وحزن. حزن على معلم قريتي الطيب، وذهول لأنني كنت قد وضعت له تلك النهاية الفاجعة على الورق قبل موته في الواقع. لم أشأ أن أغير شيئاً في الرواية، لكنني اليوم أعبر عن بالغ

سروري وشكري لهيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة «كلمة» إذ أرى المدرس كفانوت يتحدث اللغة العربية. اللغة العربية التي لا أعرف التحدث بها.

حسن مَتِه

ستوكهولم 02/02/2010

اليوم أيضا تهب رياح الخريف كما في كل عام. بعد بضعة أيام ستفتح المدارس أبوابها وسيلهوا التلاميذ في باحاتها وتتعالى أصداء صرخاتهم وصيحاتهم الطفولية.

مر عام على المدرس كفانوت وهو ينتظر بلهفة رسالة رسمية. وإذ يستلمها اليوم ترتعش يداه ويخفق قلبه. يجلس على مصطبة في فناء داره في المدينة، يحمل في يده ذلك الجواب، وبخوف لا يوصف يرتعد وهو يقرأ الورقة. وبعد انتهائه من القراءة يدرك أن كل ما ورد فيها حق. فجأة يتلوى في رأسه شيء يشبه السهم، فيرتعش بدنه ارتعاشة غريبة، ترتجف شفتاه، تتبلل مقلتاه، يرثي لحاله ويقول في نفسه: «هذا صحيح، أنا لا أصلح للتعليم، فلقد أصبح رأسي مثل بيضة فاسدة، وتصرفاتي ليست تصرفات معلم مدرسة، لكنني أفهم الآن أن تلك القرية، أن ماء تلك القرية وأزقتها«.......

يطرح المدرس كفانوت الورقة جانبا بهدوء ويسترجع في خياله سنوات عمره السالفة.

مغمورا بالفرح والأمل يجمع المدرس حاجياته ويلقيها في مؤخرة سيارته العتيقة. تجلس زوجته الشابة بجانبه وينطلق بتؤدة متوجهاً صوب الشمال.

في الطريق يتحدث عن السعادة والمشكلات التي تلازمها. ترتسم على شفتيه ابتسامة لذكرى ماضية وبشائر الشوق إلى مستقبل زاه، فينتقل ببصره من الطريق السوداء أمامه إلى وجه زوجته الصبوح ويقول:

- يا نرجستي ... ألا تتذكرين أن العم سمكو ..... لساني لا يطاوعني في التحدث عنه بسوء، لكن والدك ومنذ البداية وضع أمامي عراقيل كثيرة! كان يقول: «بناتنا لا يكفين شباب عشيرتنا، لا بنات لدينا لنزوجهن من شباب المدينة». كان يقول هذا ليبعدني عنك. ولهذا كنت أحياناً أشعر بالقرف من نفسي، كنت أشك في ذاتي، أتألم وأعاني الأمرين لأني ابن المدينة وأتمنى لو كنت بدويا مثلكم. كثيرا ما حاولت أن أوضح له أن الحب ينبع من القلب ولا يعرف الحدود، أنه نصب لي فخاخا في مضاربكم، لا أعرف كيف أنفذ منها. طالما تحدثت له عن مشاعري دون جدوى. ما كان ليتنازل عن قراره، ويكتفي بالقول: «لا يمكن يا أستاذ، لا يمكن». وفي صرخة اليائس قلت له أخيرا: «صحيح يا عم سمكو أنني لست

من عشيرتكم، لست من أهل الجبال ولا من أهل السهول. وكما تتفضل حضرتك فأنا من أهل المدينة. ولكن قبل كل شيء أنا إنسان. إنسان منكم، لغتنا، تاريخنا، ماضينا ... ضحكنا وبكاؤنا مشترك. فلماذا لا يجوز أن يكون حب فتاة من الرحّل من نصيبي؟ انظر يا عم سمكو، لو كان ما أقوم به خلافاً للعادات والتقاليد فإنني أستطيع أن أرجو رجلاً شهماً ليطلب هو لي يد كريمتكم. إنها قصة طويلة، لكنني اليوم لا أب لي ولا أم. ولأجل هذا أردت أن أحظى بأبوتك فلا ترفض ما اختاره قلبي». لان قلبه قليلاً لسماعه كلماتي هذه، لكن ذلك اللين ما كان يكفي لثنيه عن الرفض. كنت أجلس إليه ساعات وساعات، أظهر له احتراماً فائقاً، أتملق إليه كي يقبل بمصاهرتي. ولكن ما كان ذلك ليتحقق. لا ما كان ليتحقق. إلى أن جاءتني أمك - الله يعمر دارها - ذات يوم. إنها فعلاً امرأة رحيمة وطيبة القلب، لكنها بدورها كانت تشكو وتقول كسيرة الخاطر: «اسمع يا ابني، صحيح أنك معلم مدرسة وتشرفنا مصاهرتك... لكنكم حضر ونحن رحل. نحن .... إقامتنا تكون بحسب فصول السنة. في الشتاء نخيم في السهول ونرتاد في الصيف الأعالي. ولو زوجنا ابنتنا من رجل يقيم في مكان بعيد فإننا لن نراها بعد ذلك إلا نادراً. لن نرى غزالتنا.» هنا أدركت أن لي بصيصا من الأمل رغم كل

الحزن الذي ستعانيه العائلة على فراقك. فزدت من إلحافي وتوسلاتي وترددت على خيمة أبيك كل مساء وأنا أقسم له أني سأضعك في عيوني وأجعلك أميرة بيتي، سأصنع لك حياة لا تحلم بها أي امرأة سواء كانت بدوية أم مدنية، سألبي لك كل رغباتك وأحقق كل أمانيك. كما وعدته بأننا سنبحث عن مضاربهم ونزورهم لتكتحل عينا أمك بك كلما سنحت لنا الفرصة.

يلتفت المدرس مرة أخرى إلى زوجته مبتسماً ويواصل الكلام:

- ولكن، وأرجو ألا يحرمنا الله من طلاوة اللسان، وبعد لأي ارتاح العم سمكو إلى طلاوة لساني وفي النهاية انصاع لرغبتي. أليس كذلك يا عزيزتي؟

تصرف عزيزته أنظارها عن الطريق الممتدة أمام السيارة وتلتفت إليه، ثم تخفض رأسها وتقول ببراءة الأطفال:

- لا أعرف....

لم تكن نرجس على علم بحب المدرس ولا بمحنة أبيها. مرة واحدة خاطبتها أمها دون أن تدخل في التفاصيل: «عزيزتي، الأستاذ المدني وقع في غرامك ويطلب يدك ... لكن لا أعلم ما هو قرار أبيك».

نرجس، وبدون أن تتحدث مع أمها عن الموضوع ولو بكلمة يتيمة، لم تفكر حتى في الانعطافة الهامة لحياتها هذه. فهي البالغة ثمانية عشر عاماً لم تكن تعرف من الحياة، مثل باقي أترابها من بنات الرحّل، سوى أن تذهب إلى المراعي وتحلب الأغنام وهي تحرص على ألا تؤذي ضروعها، تحذر أثناء خض اللبن لكي لا تتناثر القطرات من القِرْبَة، تعمل لبناً خاثراً دون أن يصبح حامضاً. باختصارٍ كانت خالية البال وصافية مثل قطعة جبن بدوي.

ما تزال محافظة على براءتها، ومع إجابتها يرفع المدرس يده عن مقود سيارته العتيقة، ويزيحُ بروؤس أنامله خصلات شعرها الأشقر عن خدها قائلاً:

– حقيقة أنا لا أعرف يا حمامتي إلى الآن ما الذي كنت تفكرين فيه وقتذاك. أعتقد أنك كنت تقولين في قرارة نفسك: هذا الأمر لن يتم. كنت تشاطرين والدك الرأي قائلة: إن هذا معلم مدرسة من أهل المدينة وأنا بدوية من أهل الجبال» أليس كذلك؟

ترتسم علامات بهجة طفولية على شفتي نرجس. تحدق بعينيها الواسعتين في زوجها المدرس وترفع كتفيها. بحركتها تلك، تسري في جسد المدرس رعشة من مفرق رأسه حتى نهايات أُصابع قدميه. فجأة يرثي لحال الحمامة البدوية مدركاً أن زوجته ما تزال إلى الآن

لامبالية بالزواج ولا بنكهته. يغوص في قرارة نفسه ويقول:

– أية مخلوقة بريئة هذه يا إلهي! ... مثل حورية سماوية! ... لكن علي أن أعلمها الحياة ... أن أقول لها كل ما أعرفه وأساعدها لتستوعب الأمور. عليها أن تتعرف على الحياة المدنية وتتذوقها بأسلوب حضاري.

ومع هذه النجوى الداخلية يحدق المدرس مرة أخرى، بنظرات من ارتكب إثماً، إلى ذلك الوجه الخجول، وجه بدويته. تستبد به رغبة قول حقيقة ما ويقول:

– لكنني كنت مجنونا بك يا عزيزتي! أحياناً لم يكن النوم ليطاوعني في الليالي. كنت أنهض وأنتقل من زاوية إلى أخرى في غرفتي. كنت أضرب أخماساً بأسداس. كنت أبني وأعود لأهدم. لكن، ومع أن العمر لم يبلغ بي لأقول إنني عشت كثيراً ورأيت كثيراً، إلا أنني لست غِرّاً أيضاً. أعرف أسرار الحياة وأدرك ما هي معايير الزواج المثالي أو كيف يجب أن تكون. آه من الحب! إنه يعمي فلا يرى العاشق سوى وجه الحبيبة وشفتيها. من كان يستطيع التكهن بأن كفانوت المدرس وابن المدينة سيقع في غرام نرجس البدوية! لقد سمعت كثيراً من قصص الحب وقرأت روايات حب سطَّرتْها أقلام شتى، لكنني أقسم لك أنني ما كنت حتى ذلك اليوم أؤمن بشيء اسمه الحب.

هنا، وكأن الله خلق تلك اليد لمثل هذه اللحظة وهذا الأمر، يمدها المدرس مرة أخرى من فوق المقود، يقربها من وجه زوجته، يلمس خصلات شعرها الأشقر ويسأل:

– أتتذكرين يا بدويتي متى التقينا لأول مرة؟

تفكر نرجس لبرهة، تنظر مبتسمة إلى وجه المدرس، ثم تنفلت كلمة صغيرة من بين شفتيها الرقيقتين:

– لا....

– المرة الأولى يا بدويتي، المرة الأولى ... هيا تذكري أين التقينا لأول مرة.

وكأن بدويته، ومن مقعدها في السيارة العتيقة بجانب زوجها، تبحث عن خرزة في البعيد البعيد، تغمض عينيها الواسعتين رويداً رويداً ثم تقول:

– في المضارب.

وعلى أمل أن يقول بعلها: «صحيحٌ، لقد أصبتِ»، تتنهد وتومئ برأسها بينما يواصل زوجها الكلام:

– في السنة الماضية، ذات يوم من أوائل الربيع كنت منقبض النفس كثيراً. لا أعرف لماذا، ولكن انقباض النفس يعتريني دائماً في مثل

تلك الفترة. يومها صرفت تلاميذي باكراً. قلت في نفسي: تباً لفترة التدريب التي رمتني في قرية نائية! لم يفارقني الانقباض إلى العصر بل ازداد مع مرور الوقت. أردت الخروج من مدرسة القرية والتنزه بمحاذاة النهر. في الساحة الترابية خلف بيوت القرية التقيت بَرْزو، القروي الذي أعلمني بوجود أهلك في المرابع. وبعد أن حدثته عن حالتي النفسية، نزل الرجل عن فرسه وأعطاني اللجام وهو يقول: «خذ ضفة النهر وامش صوب المضارب. هناك ستلاقيك مناظر خلابة، ادخل هيام البدو، أرح نفسك قليلا، متع عينيك واشرب من اللبن البارد ثم عد أدراجك». وبعد أن حمَّلني سلامه إلى العم سمكو، امتطيت صهوة الفرس وتوجهت إلى الأعلى. كانت نسمة رخية من نسمات الربيع تهب. كان النهر المهيب في الوادي يبث الرعب في نفسي وأنا أسير بالفرس خبباً بموازاته. على حافة ذلك الجرف يدوخ المرء وتكاد روحه تطلع من الرهبة. توجد مناظر رائعة في مرابعكم تجعل الحياة بهيجة وحلوة لدرجة أن المرء يتمنى الخلود هناك. عندما وصلت إلى الدغل المواجه لمضارب أهلك، تناهت إلى سمعي نغمات شجية تنسرب من عزف نايٍ قريب. شتهدت قطيع غنم يرعي و نسوة وفتيات يتجلون بينه في أثوابهن المبرقشة. بعدها علمت أن عازف الناي هو راعي أهلك. كان جالساً على صخرة

ويسكب روحه في الناي. يا إلهي. لن يغيب هذا المشهد عن مخيلتي ما دمت حياً. كانت الحياة في تلك اللحظة تُطْلعني على وجه خفي من أوجهها. جئت بمعية الراعي إلى المضارب. وحينما علم والدك الكريم أنني معلم مدرسة القرية المجاورة زاد في إكرامي كأنه أمير كبير. أفسح لي مكاناً على بساطه اللباد المزخرف. حينها شعرت بأن المرء يدرك قيمته في مواطن كهذه بشكل أفضل. بعدها أسهب والدك بلسان عذب في الحديث عن تفاصيل حياة الترحال وختم كلامه بالقول: إننا نحل حيث تكون الإقامة طيبة والمكان ملائماً. لكن أهل الحضر لا يعرفون متعة حياتنا هذه. بغتة تناهى إلى سمعي ثغاء خراف، ألقيت نظرة من فوق كتفي فرأيت الخراف بأصواتها الحلوة الحزينة تخرج من مرابضها وتركض لتلتحم أخيراً في القطيع الذي يرعى عند الدغل. ومن هذه الأمور التي ستنحفر في ذاكرتي ولن تغيب عن بالي ما حييت........

هنا، ترتسم ابتسامة سعيدة على فم المدرس، يمد يده، التي بات القارئ يعرفها، إلى خصلات شعر بدويته ويقول:

– كانت هذه الخصلات الجعداء من شعرك الأشقر، من تلك الأمور. على يسار الخيمة، خيمة أبيك، كانت هذه الخصلات تشع تحت أشعة شمس المغيب وكأنها خواتم ذهب.

بتمهل يسحب المدرس أنامله من بين تلك الخواتم الذهبية ليستقر بها على خد بدويته، وبضحكة مجلجلة يضيف:

– إنها تلك اللحظة يا حلوتي. كل ما حصل، بدأ من تلك اللحظة. عيناك الواسعتان، فمك، شفتاك. يا إلهي. كان كل ذلك مشهداً برياً، برياً حتى أنني شعرت أن أحداً ما يهرق نجيع قلبي في وعاء ويضعه على الموقد. هكذا بدأ دمي يغلي.

مع جملته الأخيرة، يرفع المدرس يده، يمسك بالمقود، ينعطف بسيارته إلى درب صغير، يمد عنقه قليلاً، يلتفت حوله، ثم يعود للحديث مع بدويته، يشير بيده إلى أسفل المشهد ويقول:

– انظري. ها قد وصلنا. وصلنا قرية المجانين.

ثم يضحك في وجه بدويته ويضيف:

– إنني أمزح. لكنهم يسمونها هكذا. لقد سمعت الاسم من أفواه الناس. يقال إن أهل القرى المجاورة أيضاً يسمونها قرية المجانين. لكنها بقعة طيبة. طيبة جداً. ماؤها، كرومها وبساتينها، بصلها. هههههه! أتعرفين يا نرجس؟ يقول البعض إن جنون أهل هذه القرية ناتج عن بصلها. وبعض آخر يدّعي أن ماء القرية يسبب الجنون. لقد التقيت في المدينة قبل أيام بالمدرس الذي كان يعلم في مدرسة القرية حتى العام المنصرم. لو أنك شاهدته! لم يترك شيئاً لم

يحكِه ضد القرية. كيف للمرء أن يكون مفترياً لهذه الدرجة؟! على أساس أنه رجل متعلم! كان يقول لي: خذ مني هذه النصيحة. لا تصغِ إليهم كثيراً، لا تستلطفهم ولا تعرهم اهتمامك. وإلا فإنك تروح فيها، ستصبح مثلهم وتصيبك أيضاً لوثة الجنون.... انهال بالنصائح على رأسي وكأنني ذاهب للعمل في العصفورية. بدا لي وكأن عقل الرجل قد اختلَّ، إذ لا يمكن لمعلم مدرسة عاقل أن يتفوه بمثل ذلك الكلام. ثمة أمر واضح للعيان، فقبل ثلاثة أيام عندما نقلت البيت إلى القرية جاء نفر من الشباب والصبيان لمساعدتي، صحيح أنني لم ألتق آباءهم ولم ألتق كبار القرية لكنني أدركت من هدوئهم أنهم من نسل رجال طيبين. كانوا رثي الهيئة إلا أنهم جميعاً كانوا عطوفين، عقلاء، هادئين وإلى حد ما خجولين مثلك. ههههه.

بضحكته هذه، يلامس المدرس بيده السعيدة خد بدويته من جديد. يقول وهو يركن سيارته العتيقة إلى جدار مدرسة قرية المجانين:

– أنا واثق أننا سنمضي حياة هانئة في هذه القرية. لا تشغلي بالك أبداً....!

يلفت هدير السيارة انتباه أهل القرية، ومع توقفها يلتم شمل بعض القرويين في باحة المدرسة. نساء القرية وفتياتها اللواتي يذهبن إلى

النبع، يلتفتن ويلقين على المشهد نظرات فضولية من فوق أكتافهن حال مرورهن من أمام باب المدرسة ويتهامسن فيما بينهن قائلاتٍ: لقد وصل معلم مدرستنا الجديد ومعه زوجته. نرجو أن تكون حلوة المعشر، وليست مثل زوجة المعلم السابق شبه المجنونة».

وفي لمح البصر ينتشر خبر وصول معلم المدرسة في أرجاء القرية. يجتمع الكثير من القرويين لِصْقَ الجدار في باحة المدرسة ويلاحظون أن المعلم وزوجته يتكلمون بنفس لغتهم، غير مدركين أن العروس البدوية لا تعرف سوى تلك اللغة. لهذا يسهل التعارف بين جميع الأطراف ويتحمس القرويون للمدرس وزوجته وما يلبثوا أن يعتبروهما زوجاً من القرويين مثلهم. لا تبقى هناك مشكلة التعارف بين القرويين والمدرس وزوجته. يرفع الفتية والأطفال الأمتعة من صندوق السيارة الخلفي وينقلونها إلى غرفة في المدرسة، بعض الفتيات اللواتي دبَّ فيهن الحماس يجهزن بيت العروس، رجال القرية يحيطون بالمعلم الجديد ويمطرونه بالتحية وكلمات الاستقبال.

لا تمضي برهة قصيرة حتى تغيب الشمس. يتسع مجلس المدرس أكثر فأكثر. بحلول المساء يختلط صراخ الأطفال وعواء الكلاب بثغاء الغنم ونهيق الحمير، تفوح رائحة الطعام والخبز. يتذكر المدرس

في هذه اللحظة طعام العام المنصرم وكل ما لذ وطاب وقتها، يسافر بخياله إلى القرية التي قضى فيها سنة للتدريب ويصعد المرتفعات حيث مضارب الرحل. لكن هيهات. لا بيوت هذه القرية تشبه خيام الرحل ولا أهل القرية مستوحشون مثل أهل المضارب. يعود المدرس من سفر خياله على صوتٍ خشن وعالٍ:

– هيه يا أخي، هيه. لماذا تنزعج أنت، يا أخي؟

بعض رواد ذلك المجلس يطأطئون رؤوسهم ويضحكون، لكن رجلاً من الجمع يلوح بيده ويقول ممتعضاً:

– انظروا إلى هذا المجنون! لقد جذبته رائحة دخان التبغ مرة أخرى!

بضعة أشخاص آخرين من المجلس يجيبون بنفس نغمة صوت ذلك المجنون:

– لا يا أخي، لا أحد ينزعج يا كوزي! لماذا تنزعج أنت، يا أخي؟

لا يفهم المدرس شيئاً. يثير انتباهه رجلٌ حافٍ، يرتدي سترة بدون بطانة وسروالاً مرقعاً كيفما اتفق، يتوجه صوب المجلس. وكلما دنا اتضحت هيئته الرثة أكثر. يبتعد بضعة رجال من الذي يضيقون ذرعاً بتصرفاته عن المجلس ويتجهون إليه ليمنعوه من الوصول إلى

المدرس، لكن المسكين يواصل سيره مردداً باستمرار:

- وما دخلك أنت؟ لماذا تنزعج يا أخي!

النفر الذين يحاولون قطع الطريق عليه لا يستطيعون منع تقدمه. يتمكن كوزي من الوصول إلى المدرس ، يمد يده المتشققة ويقول بصوته ذي النغمة الخاصة:

- نعم! أهلاً بك يا أستاذ.

يمد إليه المدرس مترددا ويقول مع ابتسامة:

- بارك الله فيك.

يرتفع مرة أخرى صوت من المجلس ويقول:

- هيه. فلتذهب إلى الجحيم أيها المجنون! جئت ثانية من أجل السجائر أليس كذلك؟

لكن المجنون يفسح لنفسه المجال أمام المدرس ويقول لمن حوله:

- وماذا يعنيكم أنتم ها! لماذا تنزعجون يا؟ نعم المدرس يعطيني! أليس كذلك يا أستاذ!

وبدون أن يقاطعه أحد، يضع أصابع يده اليمنى أمام شفتيه، يسحب عنقه للخلف ويواصل الكلام:

- نعم، الأستاذ يهديني لفافة تبغ! فلماذا تنزعجون! أليس كذلك

يا أستاذ!

يدرك المدرس أنه يطلب سيجارة، يمد يده بسرور إلى جيب سترته ويخرج علبة سجائر. يمد له لفافة ويدرك على الفور أن كوزي مصاب بلوثة عقلية. يقول في نفسه: مجانين هذه القرية أيضاً ظرفاء.

يوزع السجائر على جميع من حوله. تفرغ العلبة. يخرج علبة جديدة ويوزع منها أيضاً بضع لفافات، حتى أن غير المدخنين يظفرون بلفافات علبته.

يمعن المدرس النظر بعينين فاحصتين فيمن حوله مرة أخرى. يقول بخجل:

- أستميحكم العذر، كما تعلمون فإن بيتي الآن غير مرتب. ولولا ذلك لكنا شربنا الشاي سوية....

ترتفع من الجمع عدة أصوات في وقت واحد:

- لنذهب إلى بيتنا يا أستاذ. الليلة.....

لكن صوت كوزي يغلب تلك الأصوات، يقاطع حديث القوم، يسحب آخر الأنفاس من لفافته، ينفخ الدخان من فمه ومنخريه ويقول:

- نعم! سنشرب شاي الأستاذ أيضاً! لماذا تمانعون ها!

معلمنا كريم.

من بين الجمع يتصاعد صوت يعلو على صوت كوزي ويقول:

– لو جئتك لدستك بقدمي ها! يا أبله! هيا اخرج من هنا فوراً أيها المجنون.

يفغر المدرس فاه من تصرفات هؤلاء القرويين ويرثي لحالهم. في الجهة الأخرى تحاول نساء القرية إقناع نرجس لاصطحابها إلى منازلهن، لكن لا المدرس ولا زوجته يقبلان بعرض القرويين. أخيراً يودعان القرويين مشفوعين بالشكر وإظهار الامتنان لهم. في طريق العودة يثني أهل القرية رجالاً ونساءً على المدرس وزوجته.

بعد انصراف الضيوف يضع المدرس وزوجته البدوية نرجس ما تيسر من الطعام الذي جلباه معهما خلال نقل البيت ويبدآن الأكل والحديث عن طيبة القرويين: ظرفاء، أهل نخوة، طيبون، محبون، طيبو العشرة ..... في هذه الأثناء يقرع أحدهم على الباب. ما كان لربة البيت أن تفتح الباب في ذلك المساء مهما كان أهل القرية لطيفي المعشر وطيبين. فيقوم رب البيت ويذهب ليفتح الباب. ثمة امرأتان واقفتان بالباب، تحملان بيضا مقليا وبرغلا، زبدة وقشدة بيضاء. بوجه يعتريه الخجل تنفلت جملة من فم المدرس ويقول:

– ما هذا؟ ما ضرورة كل هذا؟

- شيء بسيط... ليس من قيمتك.

تقول إحداهما بينما تقول الأخرى:

- اعذرانا، والله ما كان لنا علم بقدومكما. كانوا يقولون ذلك، صحيح. ولكن لم نكن نعرف أنكما قادمان اليوم بالذات.

وإذ تسمع نرجس صوت النساء تخرج إلى الباب. لا يريد زوجها في البداية قبول تلك الأطعمة، لكنه يرى تالياً أشباحاً عديدة تحمل طعاماً وتتجه صوب باب غرفته. ضمن طعام الليلة الذي جلبته القرويات، كانت سلة من الإجاص والعنب الأسود. بعد الانتهاء من تناول العشاء، يضع الزوجان الفواكه أمامهما. يلقي المدرس حبات من العنب في فمه ويقول:

- أتعرفين يا نرجس أن القرويين أكثر كرماً وأطيب عشرة من أهل المدن؟ قلوبهم أدفأ و.... أدفأ وأنصع. لو اهتم بهم المرء وتحدث بلغتهم لانصاعوا اله. لكن....

هنا يمتعض قليلاً، يقطف حبات أخرى من العنقود، وقبل أن يلقيها في فمه يواصل كلامه قائلاً:

- لكن.... لكنهم جهلة، أغبياء. عنيدون ولا يفهمون الأمور سريعاً. حظهم أسود كحبة العنب هذه.

يضع حبة العنب في فمه.

كطفل يستمع لنصائح أبويه، تظل نرجس مطرقة الرأس. أحياناً تقطف حبات من العنقود، تلعب بها بين أناملها ثم تضع واحدة منها بين شفتيها. لا ترى نفسها أهلاً للحديث في هذا المجال. لم تخض نرجس من قبل في حديث ذي شجون ولا ناقشت زوجها إلا باقتضاب. وعندما يأتي ذكر الحب وطيب العشرة، كانت حمرة الخجل تعلو وجهها دائماً.

في وقت متأخر من ذلك المساء يشبع المدرس، ينظر بأمل كبير إلى وجه نرجس ويقول:

– على كل حال، سنمضي هنا حياة هانئة يا نرجس. سيحبنا أهل القرية وسنحبهم نحن. أنا معلم مدرسة. لن أكون معلم أولادهم فقط، بل سأسعى لتعليمهم وترقيتهم أيضاً. أقسم أنني سأساعدهم في كل المجالات. سأبذل قصارى جهدي في سبيل ذلك. يقال إن الكثيرين منهم لم يطأوا أرض المدن. على كل حال فإن هذه القرية قرية عامرة وذات مياه.

بمثل هذا الحديث يصل ضيفا القرية إلى نهاية سهرتهما، ثم يندسان في فراشهما وينامان متعانقين.

***

– هيه، دعوه دعوه! دعوا القطيع يسير، هيه...!

بعد أن يتثاءب المدرس بضع مرات صباحاً، ينهض من فراشه على وقع تلك الكلمات الصادرة عن راعي بقر القرية. يسير إلى النافذة، يتمعن في منظر القرية. نرجس مستيقظة منذ وقت طويل، تجلب الماء من ينبوع في باحة المدرسة وتسترق بدورها نظرات إلى موطنها الجديد. تختلط أصوات الحيوانات بأصوات القرويين الذين تسرح أغنامهم، بضع فتيات ونساء يجتمعن عند نبع القرية. راعي البقر يجمع قطيعه في الجهة العليا من المقبرة ويداوم الصراخ:

– دعوه دعوه، هيه دعوا القطيع يمضي.

يفتح المدرس نافذة حجرته. تلامس وجهَه نسمةٌ من نسمات أوائل الخريف. يشعر بغبطة لا حدود لها. يسير في اتجاه الإيوان بخطوات المدرس السعيد. ينتعل صندله ويخرج بثياب النوم إلى الباحة. عند ينبوع الساحة يلقي بنظرة على القرية والقرويين والمقبرة المتاخمة للمدرسة، وكأن ما فات فات والحياة السعيدة تبدأ للتو. يلتفت مبتسماً إلى نرجس. على الطريق المؤدية إلى نبع القرية، في الساحة الترابية بجانبه وفي الدروب الصاعدة إلى الكروم يلتفت

القرويون إلى المدرسة وينظرون. من بعيد يلقي عليه بعضُ رجال القرية التحية مرحبين به. قرويتان قادمتان تتخذان طريق المدرسة في أيديهما طعام الفطور. تصلان إلى باب الحجرة. يلحظهما المدرس ويقول مستغرباً:

- ما هذا؟... والله لستما مصيبتين فيما تعملان. نحن أيضاً لنا بيت وفيه ما نأكله وما نشربه. لقد أتينا معنا بكل ما نحتاجه.

- وليكن يا أستاذ وليكن...

تقول المرأتان وتمطرانه بعبارات الحفاوة الحارة. في هذه اللحظة تحين منهما التفاتة إلى زوجته. ينسل المدرس إلى داخل الحجرة. تتبادل زوجته التحية مع المرأتين وتتجاذب أطراف الحديث. تنصرف المرأتان وتتركان ما جاءتا به من طعام في يد نرجس.

يتناول الزوجان طعام الفطور. يرتدي المدرس ثيابه ويتجه إلى باحة المدرسة. الشمس مرتفعة بقدر ثلاث قامات على أشجار الصفصاف المنتصبة بجانب المدرسة ومن خلف تلك الأشجار، من أشجار مزار مالا دينان [1]، تتصاعد زقزقة العصافير. من السهوب تصل أصوات الجنادب. الأطفال يلعبون قرب جدران البيوت.

(1) مالا دينان: حرفيا «بيت المجانين»

القرويون يسعون إلى شؤونهم استعدادا للخريف. الهواء يأتي بروائح التراب والجبال البعيدة. تسحر البراءة المعلم، فتطفر الدموع من عينيه وتطمئن روحه إلى عذوبة الصباح. يشعر أنه يسكن جناح الحمامة البيضاء التي ترفرف في السماء الزرقاء فوق رأسه متجهة إلى مزار «مالا دينان».

في هذه الأثناء، يغُذّ رجلٌ طويل القامة السيرَ من خلف البيوت صاعداً باتجاه المدرسة. وبدنو الرجل تتضح لحيته البيضاء كثلج الجبال، إلا أن مشيته ليست مشية الشيخ، بل ويبدو أنه لا يحمل عكازه القديم الجميل إلا إشارة إلى الهيبة والوقار. يرفع يمناه ويلقي التحية على المدرس بصوت أجش. يتقدم نحوه المدرس ويرحب به أجل الترحيب متذكرا جده الذي قيل أن جنية خطفته ذات يوم إلى بلاد ما وراء بحر الخزر حيث اختفى. يحاول لثم يديه إلا أن الشيخ يسحب يده قائلا:

– أستغفر الله يا ابني.

ثم يذهبان للجلوس في ظل الجدار، حيث يهيئ العجوز لنفسه مكاناً وينظر إلى المدرس بعينين حنونتين. ودون أن يطبقهما يقول:

– ليرضى الله عنك!... أنا سيفدين، سيفدين سليم ... وأهل القرية ينادونني صوفي سيفدين.

– وأنا أُدعى كفانوت، أيها الصوفي.

– ليحفظك الله. من أي عشيرة أنت يا أستاذ؟

يرد عليه المدرس بوقار معلم وذكائه قائلاً:

– لا عشيرة لنا الآن أيها الصوفي. لقد ولى زمن مثل هذه الأمور من الحياة الحضرية.

يتمتم صوفي سيفدين كمن يأسف لما آلت إليه أحوال الدنيا وضياع الزمن السعيد، حيث كانت الناس تعرف آباءها وآباء آبائها إلى نهاية النسب، ويقول متنهداً:

– كل يوم تضيق الدنيا أكثر ويتفرق الناس كحبات حمص وقعت على صخرة. لم تبق في هذه الحياة صلة رحم.

في محاولة منه لتغيير وجهة الحديث وإدخال البهجة إلى قلب صوفي سيفدين، يتحدث إليه المدرس مرحا:

– ما شاء الله! لقد عشت عمراً مديداً أيها الصوفي.

ينظر الصوفي إليه والابتسامة ترتسم على محياه، يمسد لحيته البيضاء بيده الفارغة، يغمض عينيه ويقول:

– إيييه... لا يستهان بما عشته من سنين. الله أعلم ... ولكن على حد علمي فقد خلفت ورائي في هذه الحياة مائة وعشرين سنة.

– ما شاء الله!... مد الله في عمرك أكثر، أيها الصوفي!

يخاطبه المدرس ثم يقول في سره مائة وعشرون عاماً ليست بالقليل.

يضع الصوفي سيفدين يده على ركبة المدرس، يربت عليها ويقول:

– سلمك الله!...ومد في عمرك أكثر مما مد في عمري!

– ما شاء الله، ما تزال محتفظاً بقوتك، أيها الصوفي.

– يفعل الله ما يشاء. كل شيء في يده.

يجيب الصوفي سيفدين ويشير بيده إلى المقبرة المقابلة، وكمن يريد تأكيد كلامه وإثباته يواصل بتنهد:

– كثيرون تبعوني في الولادة وسبقوني في الموت ... ذهبوا وتمددوا هناك. ما زلت أذكر إلى الآن عندما استقر والدي أخيراً في القبر، كان ثمة بضعة بيوت قريبة من .الا دينان.بمحاذاة النبع أعلى المقبرة، كانت أشجار البلوط تلتف على بعضها البعض حتى ظهر الجبل. في سفح الجبل كان الأمر على هذا المنوال أيضاً وما كان أشجع الصيادين يتجاسر على السير بينها نهاراً. هذا الوادي كان محفوفاً بغابة برية. لكن أينها الآن؟

يمد ذراعيه وينظر فيما حوله ويقول:

– لقد قطعوها. قطعوها كلها، وحرثوا الأرض مكانها. بفضل بعض الأرواح المقدسة بقيت بعض الأشجار في هذا العراء. في أيامنا كانت أرض الله واسعة جدا. كان لكل امرئ ولكل شيء موطئ قدم وكان بإمكان المرء أن يعيش مع حفيد حفيده في بقعة واحدة، في دار واحدة. لكن الآن؟

ينظر المدرس إلى العجوز بعينين فاحصتين فيرى أن كل شعرة باقية في رأسه، وحول رقبته ذات التجاعيد، وكل الشعر الذي على ذراعيه أيضاً قد ابيض وكأنه صوف مغسول. تبدو لناظري المدرس تجاعيد جبهة العجوز نقوشاً تاريخية حفرتها الحياة بمهارة. يقول في سره: أستطيع معرفة كل شيء في هذه القرية من هذا العجوز، إنه بصراحةٍ قاموسٌ، قاموس غني».

يسأل المدرسُ ذاك القاموس الغني:

– هل أنتم من هذه القرية، أيها الصوفي؟

حينما يجد العجوز أن هناك من يريد الإصغاء إليه، يدب فيه الحماس للحديث عن سالف زمنه وتقليب دفتره المصفر صفحة صفحة، ليبعث فيها حياة جديدة. يمد ناظريه إلى السهوب المترامية ويغرق في تاريخ لا يعلم كم مر عليه:

- في تلك الأيام لم تكن ثمة قرىً كما الآن. لم يكن هناك سوى مالا دينان وعدة منازل قميئة تحيط به. وعندما أتينا من بلاد سرحدان بقطعاننا لنصطاف هنا، ذهب أبي وجلس على بساط الصوفي دينو[2]، كبير مالا دينان. كان رجلاً شهماً طيب القلب وبيته عامراً لا يخلو من السعاة والمحتاجين والمرضى، الذين يتبركون به ويتشفعون بحجبه، فيشفون ويعودون إلى ديارهم وهم يدعون للصوفي دينو بدوام البركة وطول العمر. سرعان ما عقد صوفي دينو أواصر الصداقة مع والدي ولم يقبل أن يعود أدراجه إلى سرحدان.

وكمن يتذكر أمراً جديداً أو يلفت انتباهه شيء ما، يطرح المدرسُ سؤالاً آخر على العجوز:

- من أطلق هذا الاسم ... اسم الصوفي دينو على الرجل؟

يمد العجوز يديه إلى الأعلى، يقول وكأنه لا يستطيع هو أيضاً إيجاد الجواب:

- والله ..... كنا صغاراً في ذلك الوقت، ولكن حسب معرفتي، فهذا ليس اسمه الحقيقي. وبسبب بعض النوادر التي قام بها في أيامه

---

(2) دينو: المجنون

الأخيرة على هذه الأرض وأثارت حفيظة أهله وبنيه، وسموه بالجنون وهكذا لصق به اسم صوفي دينو. وبعد الخوارق التي بدرت منه والكرامات التي حصلت له، هابوه وقنعوا أن روحا مقدسة تسكن فيه، لكن اسم صوفي دينو كان قد شاع في الأصقاع، فلم يعد أحد قادرا على محوه من ذاكرة الناس، التي كانت تعتبره قديسا رغم دلالة اسمه على الجنون، بل وكانت ترى أن روحه القديسة تتظاهر بعض الأحيان بالجنون، كي يظل محافظا على تواضعه ولا يتمرد على رب العالمين بقدراته الغريبة وبركاته المحققة.

يزداد فضول المدرس فيسأل:

– وما هي النوادر التي حصلت له حتى أطلقوا عليه اسم الصوفي المجنون؟

– ألم يسبق وقلت!..... في البداية أشاعوا عنه الإصابة بالخرف. فليشمل الله روحه المقدسة برحمته، كانوا يقولون ..... في ذلك الوقت كنا صغاراً ولا نعي مثل تلك الأمور .. لكنهم كانوا يقولون، إنه هام في أواخر حياته بحب زوجة ابنه وإن حيرة بالغة أصابت ابنه، قبّل يدي والده وقدميه راجياً منه ترك ذلك. ولكن لم يُجْدِ ذلك نفعاً مع والده الذي لم يترك هواه. كان حبٌّ سماوي قد استحوذ عليه. اضطر ابنه أن يأخذه ذات ليلة من ليالي الربيع، ليس فيها ضوء قمر،

على صهوة فرس إلى كهف زونْجِك ... لا يعرف أحد ما الذي كان يدور في خلد الابن، ولكن بحسب ما روته زوجته، فقد صادفته أمام باب الكهف مخلوقاتٌ غريبة وقالت للابن: لو نفذت ما عقدت العزم عليه، فإننا سنفقأ عينيك.

الله وحده يعلم ما الذي كان ابنه ينوي عليه ... في تلك الليلة قفل الابن مع أبيه راجعاً إلى البيت ووقع الاثنان طريحي الفراش. وفي تلك الليلة، في ذلك المرض، قام الابن ليروي هذه الحادثة لزوجته ومع تباشير الصباح أسلم الروح. آمنت بالله. إرادة الله عجيبة!.... وعندما رفع أهل البيت نعش الابن، ظل صوفي دينو طريح الفراش، ولم يغادره إلى أن مات. لقد أمضى آخر ثلاثة أشهر من عمره في الفراش .... وقبل أن يموت ..... وأيَّ موت كان ذاك يا إلهي!..... موت بشق الأنفس. كنا صغاراً آنذاك ... أبي .... رحمه الله ورحم جميع موتانا! كان أبي عند رأسه. كان يحدثنا عن موته ويقول: هبَّت عليه ريحٌ أيوبية.

وبحسب ما كان يرويه أبي، فقد قام الصوفي دينو وشق ثيابه، انكب على وجهه وقال ما قاله النبي أيوب: لقد نزلت من رحم أمي عارياً وعلي أن أعود إليه عارياً. ايه ايه. كثيرون خاضوا في تفسير ما حدث وقالوا إن تلك الروح روح سماوية.

***

يعلم جميع القرويين بقدوم المعلم الجديد وأن المدرسة تفتح أبوابها. من خلف الجبال ترسل الشمس باسمة ضفائر شقراء كخصلات نرجس تتلاعب فيها نسمات دافئة. مازال على الشجر والكروم المحيطة بالقرية بعض الورق الأخضر الذي يمتنع عن الاصفرار كأنه يريد الصمود في معركته مع الخريف. بشائر الفرح الوليد تتمازج مع الضباب المتصاعد من حنايا الأرض.

استعدادا لمقدم الأطفال إلى المدرسة في يومها الأول يتهيأ المدرس ويخرج باكراً من غرفته إلى باحة المدرسة. بسعادة غامرة يتجه إلى الينبوع، ينهل قليلاً من الماء البارد هناك. ومن فرحته بمشهد القرية الجميل يطبق شفتيه ويأخذ نفساً طويلاً، يملأ رئتيه بالهواء، يا لها من رائحة طيبة! ما عدا رائحة وقود ودواليب سيارته العتيقة المركونة في زاوية من الباحة، يشي كل شيء بشذى طيب القرية.

يمشي بخطوات وئيدة صوب باب المدرسة، يفتحه ويدلف إلى الداخل، يقول في سره: فلألق نظرة متمعنة وأرى كيف هم تلاميذي ويسحب جدول الأسماء من درج طاولة الصف، يقلبه صفحة صفحة فيرى أن مجموع عدد التلاميذ سبعة وعشرون تلميذاً، منهم

واحد وعشرون ذكرا وست إناث. واستناداً على دفتر الأعوام الماضية فقد قُسِّم التلاميذ إلى فئتين: الصف الأول والثاني والثالث في فئة، والصفان الرابع والخامس في فئة ثانية. يعود المدرس إلى نفسه ليقول: ليسوا كثيرين. وسأكون قادراً على تعليمهم حسب الأصول.

وبفضول كل المدرسين الجدد يريد معرفة أسلوب التعليم في السنوات السابقة فيرى أن المعلم الذي سبقه ملأ الدفتر اليومي من أول صفحة فيه إلى آخر صفحة بأمور رتيبة: القراءة، أسماء الفصول، الرياضيات ... إلخ.

يقول المدرس لنفسه: ليس عبثاً أن يشتكي الناس من معلمي مدارس القرى المهرجين هؤلاء. إنهم يعرفون أن المفتشين لا يمرون إلا نادراً بهذه المناطق. ومن يدري أي تعليم يمارسونه في هذه القرى النائية! على كل حال سأرى بعد قليل ما الذي تعلمه هؤلاء التلاميذ. يترك الدفتر مشرعاً على الطاولة ويتجه خارجاً.

ثمة تلميذان واقفان بجانب جدار الباحة. ما إن يقع نظرهما على معلم مدرستهم الجديد حتى يبادرا إلى الوقوف بشكل يوحي بأنهما تلميذان نبيهان. وقبل أن يبادرهما المدرس بالكلام، يشاهد الصوفي سيفدين، العجوز الذي تحادث معه البارحة، ممسكاً بيد طفلة صغيرة ويسحبها خلفه باتجاه المدرسة. يتقدم المدرس بتردد

ودهشة صوبهما. فجأة يشعر بخليط من المسؤولية والرهبة دون أن يعرف ما الذي جرى. الجرح الذي على يد الطفلة يلوح بادياً للعيان من بعيد، وإلى أن يقترب العجوز والطفلة منه لا يعرف المدرس أي جرح هو.

يخاطبه العجوز من بعيد:

– ألوذ بحمى الله وحماك يا أستاذ!

ويشرح له أن أفعىً لدغت يد الطفلة. وقع كلمة الأفعى يفاجئ المدرس، يرعبه، يشعل حريقاً في قلبه، لكنه يتمالك أعصابه ولا يفقد وعيه، يسرع إلى الطفلة، يمسك ساعدها، يضغط عليه ويقول للعجوز في جمل متقطعة:

– أسرع أيها الصوفي! .. أسرع، اقتطع ... اقتطع من طرف ثوبها خرقة ...

يسرع العجوز، يخرج مدية من تحت حزامه ويقطع من حاشية فستان الطفلة بمقدار ثلاثة أصابع. يعمد المدرس إلى ساعد الطفلة فوق مكان عضة الأفعى بشبر ويلف الخرقة عليه بإحكام.

– ما الذي حصل؟ ومتى كان ذلك؟

يقول المدرس وهو يضع الطفلة في حضنه ويسرع إلى سيارته

العتيقة. يتبعهما العجوز وهو يتمتم:

– ألا تعرف هؤلاء الأطفال يا أستاذ! ما من ثقب في حائط أو تحت حجر إلا ويدسون أصابعهم فيه .. مقصوفة العمر!.. عليها اللعنة .. ذهبت ودست إصبعها في ثقب في الجدار .. لدغتها أفعى .. عليها اللعنة .. هذه الطفلة المشاكسة.

الخدر ينتشر في يد الطفلة المشاكسة حتى كتفها. ألم لا يحتمل يسري في جسدها. عينا الطفلة ذابلتان ولونها ممتقع. تكاد لا تقدر على السير. تفقد الوعي وتتهاوى كفرخ عصفور.

في مثل هذه الحالات يعصر الألم روح المدرس وكأنه معجون بروح المسيح. إن حدثه أحدهم عن التعذيب، فإنه يشعر بآلام التعذيب في نفسه ولا يهم أين ومتى جرى التعذيب ذاك وحين يرى أحداً في ضائقة، فسرعان ما تشعر روحه بانقباضات تلك الضائقة. وإذ يرى الطفلة فإنه يشعر بألمها ويقول في نفسه: يا إلهي ... ما أشد بؤس أهل القرى هؤلاء. ما للأفعى ولهذه الطفلة ذات الثمانية أعوام! الله وحده يعلم مدى آلام هذه المسكينة!.ثم يسرع في فتح باب سيارته العتيقة، يدع العجوز يدخل ويُجلِس الطفلة في حضنه، يدور إلى الجهة الأخرى من السيارة، يشعل محركها وينطلق مبتعداً عن المدرسة، مبتعداً عن القرية. يتبع التلميذان النبيهان السيارة المنطلقة بنظراتهما

المذهولة إلى أن تغيب عن الأنظار ولا يعودا يسمعان هديرها.

إلى أن يحل المساء، يلعب تلاميذ القرية في باحة المدرسة منتظرين عودة معلم مدرستهم الجديد. تميل شمس الظهيرة وتخف حرارتها. تسري في الطبيعة برودة منعشة. وفي اللحظة التي تقترب فيها الشمس من الغروب يُسمع من جديد هدير السيارة العتيقة قادمة من أعلى القرية. لا يمضي كثير من الوقت حتى يكون المدرس والطفلة الصغيرة مع جدها قريبين من جدار الباحة. يصرف المدرس البقية الباقية من التلاميذ، الذين ما يزالون ينتظرون دروس اليوم الأول إلى بيوتهم، يدخل مع الطفلة والعجوز إلى حجرته.

يمدد المدرسُ الطفلةَ في ركن ويدعو العجوز للجلوس. يتجه إلى المطبخ ويطلب من زوجته تهيئة الشاي، يحضر قطعاً من السكاكر بأغلفة جميلة ويناجي الطفلة بهدوء:

– أيؤلمك ساعدك؟ ... ربما لا يؤلمك الآن كثيراً، لكن بمجرد شعورك بالألم أخبرينا لنناولك الدواء، ولتكن هذه السكاكر الحلوة لك.

تمد الطفلة المسكينة يدها السليمة وتتناول تلك السكاكر الجميلة، تقربها إلى صدرها وتنظر من طرف عينيها إلى المدرس بفرح طفولي. من الواضح أنها مندهشة مما يفعله المدرس. رجل بمثابة ضيف أو

رجل غريب وضعها في سيارته وقادها بعيداً إلى مبنى غير معروف، احتضنها، ومددها في ركن من أركان غرفته وفوق ذلك منحها قطع سكاكر جميلة! الطفلة غارقة في أفكارها الصغيرة وتستذكر كل هذه الأمور دون أن تعبأ بآلام ساعدها.

ما تعيده الطفلة من أمور تدور في خَلَد جدها أيضاً. يعلم الله أنه يضرب أخماساً بأسداس دون أن يخرج بنتيجة. ومع أنه جلس إلى المدرس أمس في ظل جدار المدرسة وسأل عن أحواله وجاذبه أطراف الحديث متوصلاً إلى قناعة تامة بأن المعلم رجل متواضع متزن، إلا أنه يظل مندهشا من أن موظفاً كبيرا يعامل قروياً مثله تلك المعاملة الطيبة. وحتى عندما يخاطبه المدرس بفرح قائلاً: «رائعٌ أنهم سارعوا إلى حقن وريد الطفلة البائسة وإلا ... كانت الأمور ستسوء كثيراً»، لا يجيبه العجوز وكأنه غائب عن نفسه مما يؤكد أنها المرة الأولى التي يصادف فيها موظفاً كبير القلب عطوفاً لهذه الدرجة. وليس هذا رأي العجوز وانطباع الطفلة الصغيرة فقط،، بل سيشاطرهما كل القرويين هذا الرأي. إذ عندما يخرج العجوز وحفيدته من بيت المدرس بعد احتساء الشاي، يصادفه القرويون في طريق عودتهما إلى البيت ويبادرونه بطرح جملة متكررة.

جملة لا تتعلق بصحة الطفلة الصغيرة، بل تعبر عن الحيرة وعدم

التصديق: «سمعنا أن المدرس الجديد اصطحبكما بسيارته إلى المدينة ... يا له من مدرس متواضع! طيب ورحيم».

وكلما لاقته امرأة أو رجل في زاوية أثناء سيره، تحدثوا عن المدرس بنفس ذلك الإطراء، وهو من جانبه يضيف إلى ذلك أضعاف ما يصف به القرويون المدرسَ الجديد، يتحدث عن طيبة قلبه وسعة صدره. بهذا المديح يرى العجوز نفسه محظوظاً وفخوراً إذ وصل إلى تلك المسافة القريبة من موظف، دخل بيته واحتسى شاياً عنده!

تلك الليلة يتحدث الجميع في كل بيت وكل زاوية من زوايا القرية عن رقة قلب المدرس ونقاء معدنه. رغم هذا لا يصدق بعض الحاسدين الذي لا يريدون الخير لأحد ويقولون في قرارة أنفسهم:

– ربما حصل المدرس الجديد على وعد من الصوفي سيفدين بمنحه خروفاً، أو أن العجوز قد داهن المدرس كثيراً حتى يبقى على علاقة طيبة معه.

***

اليوم التالي. جميع التلاميذ يجلسون في أماكنهم التي حددها

لهم المدرس اعتماداً على دفتر الصف. المدرسة برمتها عبارة عن حُجرة واحدة، من الصف الأول وحتى الخامس يجلس التلاميذ في تلك الحجرة. مقاعد التلاميذ مفصولة عن بعضها حسب الصفوف الدراسية. يمكن القول إن كل مقعد يشكل صفاً دراسياً، صفاً بلا جدران. يبدو أن هذا الأمر يريح المدرس كفانوت ولا يضطره للانتقال من صف إلى آخر.

ينظر التلاميذ إلى معلمهم بفضول بالغ وعيون تنتظر الرحمة. وقبل أن يجلس المعلم إلى طاولته، يكتب على السبورة اسماً، ويلتفت إليهم قائلاً:

- اسمي كفانوت.

يذهب إلى طاولته، يجلس ويمعن النظر في جدول التفقد وينادي التلاميذ بأسمائهم واحداً واحداً:

- كوركين.

صوت طفل يعلو من زاوية في آخر الصف ويقول:

- حاضر.

- كوكو.

- حاضر.

- دلشا.

يجيب تلميذ ما:

- غائبة.

من بين التلاميذ، ينهض أحدهم ويخبر المدرس بصوت مبحوح، بأن الأفعى لدغتها مما منعها من الحضور. يتنهد المدرس، يتوقف قليلاً ودون أن يقول شيئاً يواصل قراءة الأسماء:

- روشن.
- حاضر.
- م.
- حاضر.
- آرام.
- حاضر.

....................

بعد التفقد ينهض المدرس، يتجول لبرهة بين المقاعد، ينظر إلى التلاميذ بعيون فاحصة ويقول في نفسه: إنهم تلاميذ نجباء، طليقو اللسان غير هيابين. تماماً كدأب التلاميذ الأذكياء يخاطبون المعلم دون رهبة أو خجل. يلتفت إليهم ويخاطبهم بصوت خفيض:

– أيها الأولاد، قبل أن نفتتح دروسنا لهذه السنة، أود التحدث إليكم حول موضوع سنعتبره الدرس الأول، موضوع لا يوجد في كتبكم المدرسية، أي أن هذا الموضوع غير موجود بتفاصيله من شرح وتفسير حسب فهمكم. هذا الموضوع يقول إن الإنسان لا يمد يده إلى ثقوب الجدار. سأتحدث عن دلشا، لقد سمعتم كلكم أن الأفعى لدغتها عندما مدت يدها البارحة إلى ثقب جدار. أنا لا أعرف لماذا يمد الإنسان يده إلى ثقوب الجدار.

من الصف الخلفي يرتفع صوت تلميذ قائلاً:

– أنا أعرف أستاذ.

يلتفت إليه المدرس ويقول:

– ماذا تعرف يا كوكو؟

وكما أن كوكو يندم على كلامه تعتريه دهشة، لكنه مع ذلك ينهض ويقول:

– أعرف لماذا يدس المرء يده في الثقوب.

يطرح المدرس سؤالاً بصيغة لماذا، بأسلوب يدفع كوكو إلى التجرؤ على شرح فضول أطفال القرية:

– الأولاد يدسون أيديهم في ثقوب الجدران والأشجار من

أجل فراخ العصافير وبيضها بهدف اللهو. أحياناً يريدون تخريب الأعشاش. ولا يقتصر الأمر على اللهو بالعصافير، بل ينزلون في الليل إلى الوديان ويصطادون الضفادع، يربطون أطرافها ويعلقونها بحيث تتدلى رؤوسها إلى الأسفل. وفي النهار يجمعون السلاحف ويضربونها بأحجار كبيرة، يقتلونها ويقطعونها إرباً إرباً، ثم ينزعون عنها دروعها ويأخذون عظم القص منها إلى أمهاتهم.

حينما يتحدث كوكو عن تصرفات الأطفال هذه، يقشعر بدن المدرس وينتصب شعره ويبقى فاغر الفم من الدهشة. لكن شيئاً يلفت نظره ويحتل مساحة من خياله، يلتفت إلى كوكو وبهيئة جاهل يريد سماع أحاديث عجيبة، يقول:

- عظم القص من السلاحف؟ لماذا يأخذ الأولاد تلك العظمة إلى أمهاتهم؟ ما هي؟

كوكو، التلميذ في الصف الخامس، وأكبر التلاميذ سناً، أشقى ولد في القرية، يقف في الصف الآن كمستشار صغير ذكي، يشرح لأستاذه الفضولي هذه الأمور العجيبة ويقول فيما يجول بعينيه بين زملائه من التلاميذ:

- إنها...

تلفت نظرَه حدبةٌ على كتف زميل له، يخرج من مقعده ويتوجه

إلى زميله، يشير بإصبعه إلى تلك الحدبة ويقول:

– هذه هي!

يتجه المدرس إلى التلميذ صاحب الحدبة، يمعن فيها النظر فيراها عبارة عن قطعة صغيرة من الرصاص، قوقعةً، وريقتين من الذهب، خرزةِ حصان، تعويذةٍ في قماش أخضر، عصيةٍ شوكية وعظمةٍ ذاتِ ثلاث شعب، وكلها مضمومةٌ لبعضها وملقاةٌ بشكل حدبةً على كتف التلميذ. من بين كل تلك الأشياء، يريد كوكو لفت نظر المعلم إلى تلك العظمة ذات الشعب الثلاث وإفهامه أنه يقصدها بكلامه. يفهم المدرس أن تلك العظمة الصغيرة ثلاثية الشعب، هي من عظام السلاحف وأن تلميذه كوكو يقصدها بعينها. يلمسها بطرف إصبعه متفحصاً ويسأل كوكو:

– حسنا، لماذا يعلقون هذه العظمة على الأولاد؟

ينظر كوكو بابتسامة إلى بنكين صاحب الحدبة ويقول:

– لكي لا تصيبهم العين.

تبدو على المدرس دهشة حقيقية مما تفوه به تلميذه كوكو من أمور عجيبة، يزداد فضوله ويبدو كمن يستزيد علما، يضع إصبعه على تلك المجموعة من التعاويذ، يشير إلى العظمة ثلاثية الشعب ويقول:

- حسنا، هذه العظمة لدفع أذى العين، فما هذه العصية المسننة؟

ينظر كوكو ثانية إلى بنكين، يهز كتفيه ويقول مبتسماً:

- هي عصية الحمى .. لا أدري .. أمه تحبه كثيراً، لذلك وضعتها.

يعرف المدرس مسألة التعاويذ والتمائم، يعرف أن كثيراً من المتدينين يعتقدون بصحة التمائم، يحملون تعاويذَ في أعناقهم ويعلقونها على أكتافهم، يضيفون إليها الذهب والفضة والخرز أيضاً، لكن العصيات المسننة وعظم القص في السلاحف أمر جديد ومستغرب يسمعه لأول مرة. إن قتل السلاحف في سبيل الحصول على تلك العظام الصغيرة أمر غير مقبول.

لا يريد في البداية أن يقتنع بأن كوكو صادق في أقواله، لكنه حين يرى بأم عينيه عظم القص معلقا على كتف بنكين، يتيقن من جهل الأهالي وإيمانهم بالخرافات. يقول في سره: من الأفضل أن أناقش هذه الأمور مع أولياء التلاميذ. يأمر كوكو بالجلوس، يريد العودة مرة أخرى إلى التحدث مع تلاميذه والبدء من حيث انتهى في كلامه فيقول:

- لكن مع ذلك.. عليكم أن تفهموا أن لكل حيوانٍ روحٌ كالإنسان تماماً. عندما تصاب الحيوانات بضربة حجر في رأسها، أو ضربة عصاً في مؤخرتها فإنها تشعر بالألم.

صحيح أننا لا نشعر في أكثر الأحيان بآلامها ولا نسمع بكاءها، لكنها تبكي. تبكي وتستغيث أيضاً.. تخاف، تبحث عن ملاذ وتطلب النجدة. ليقم أحدكم وليحدثنا عن آلامه، ألم يقع أحدكم مرة من المرات، ألم يؤلمه عضو من أعضاء جسده؟

صوت كوكو يرتفع مرة أخرى، ومع حديثه يخرج ثانية من مكانه ويشرح للأستاذ أن آلاماً فظيعة تصيب رأس الإنسان خاصة في لعبة .ربرانو.وأنه نفسه قاسى مثل تلك الآلام الكبيرة مرات عديدة، وعندما يستوضح المدرس عن طريقة لعبة ربرانو.

يجيبه كوكو بالقول: إن تلك اللعبة تقتضي أن يصبح طفلان كبشين لشخصين آخرين، ويقوم صاحبا الكبشين بإمساكهما من رقبتيهما ويثيرانهما وسط الصيحات ثم يطلقانهما، ينطلق الطفلان اللذان يلعبان دور الكبشين ويتناطحان، يسبب ذلك التناطح ألماً رهيباً في رأسي الكبشين ويسري الخدر فيهما».

تغشى الظلمة عيني المدرس ويوشك أن يصرخ زاعقاً في تلميذه كوكو ويقول في عصبية زائدة شيئاً ما، لكنه سرعان ما يستعيد رشده ويسأل بلطف قائلاً:

- طيب، ومن هما صاحبا الكبشين في تلك اللعبة؟

بحركة خالية من الخبث يضع كوكو يديه على خصره ويقول:

– لا أدري، كل من أراد يمكنه ذلك ... أنا مثلاً أكون كبش أبي في كثير من الأحيان.

***

يفكر المدرس طويلا في حال التلاميذ. يبحث في أصول التربية ومناهجها وعن أسلوب للحديث مع أهل القرية كي يُرشِدهم إلى الطريقة المُثلى لتربية الأطفال. يقلب الفكر ليال طويلة ويقرر بالنتيجة أن يبتدئ التعامل مع أهل القرية على هوى عقولهم وطرائق تفكيرهم في بعض الأمور العادية، يحادثَهم حول المشاغل اليومية، ويناقشَهم في مصاعب حياة القرية ومشكلاتها ثم يدير دفة الحديث رويداً رويداً صوب تربية الأطفال. وهكذا يفعل.

يتوجه ذات مساء إلى مضافة القرية. تتناهى نغمات ناي عذبة إلى مسامعه عبر باب المضافة المشرع لتلقي نسمات أوائل الخريف المنعشة. تمتد من المضافة سحابة دخان التبغ على شعاع ضوء باهت إلى الخارج وكأن سحابة الدخان تلك وذلك الضوء غير قادرين على تحمل سماع النغمات الشجية.

على باب المضافة تلفحُ وجهَه سحابةُ دخان قاتم حاد. وكمن يغوص في أعماق منفضة سجائر كبيرة ومغلقة، تضرب أنفه رائحة التبغ المحترق وأعقاب السجائر. هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها

المدرس المضافة خلال أيامه السبعة المنصرمة في القرية.

لدى الباب وفي الزاوية اليسرى يقف شاب رث الهيئة أمام مجموعة من الكؤوس وإبريق الشاي. كحبات مسبحةٍ تصطفٌّ لصقَ بعضها رؤوسٌ كثيرة لقرويين جالسين على بسط اللباد المزخرفة بشتى النقوش. في آخر الصف على ميمنة المجلس حيث أحذية رواد المضافة، ينحني رجل بائس في منتصف العمر على نايٍ من القصب ويسكب أنفاسه وحسراته في ثقوبه، لا يعبأ بالعالم حوله كأنه يعزف لجنيات شفيفات يراهن متراقصات على أنغامه، فلا يتوقف عن العزف كي لا يهجرنه ويخلفن في قلبه حزنا ثقيلا كالحجارة أمام فوهة كهف زونْجِك. تلتقي نظرات المدرس بالعجوز سيفدين سليم وعصاه المباركة جالساً على لباد أحمر منقوش في صدر المجلس.

مع إلقاء المدرس التحيةَ يتوقف عزف الناي. ينهض القرويون جميعاً ويصطفون لمصافحته. يبدأ المدرس من جهة اليسار. يلاحظ بين تلك الوجوه سحنات لم يرَها من قبل. وعندما ينتهي من مصافحة جميع الرجال ويصل إلى آخر الصالة حيث الأحذية، يمد يده إلى عازف الناي، لكن هذا لا يرد عليه التحية. يرى المدرس كرتين بيضاوين في محجري عينيه. يرثي لحاله وتدرك قلبَه رقةٌ فيقول:

- الحقيقة أنك عازف ماهر.

ويضغط على يديه مصافحاً.

بعد كلمات التحية والترحيب، يجلس المدرس على اللباد الأحمر المنقوش في صدر المجلس جوار سيفدين سليم، ولا يني يشعر بالعيون الفضولية التي لا تنفك ترقبه. تخيم لحظة صمت قصيرة على المجلس. يحرج تواجد موظف حكومي في مجلس الأنس القرويين، ويحملهم عبئا ثقيلا، أثقل من حِمْلِ حطب وأشد من المرض. صحيح أنهم عرفوا طيبة قلب المدرس وتواضعه وسمعوا أنه يتكلم بلغتهم، إلا أن الصعوبة تبقى هي هي مادام الأمر يتعلق بالحديث إلى موظف، فهم يتحاشون الموظفين خشية منهم ويعتبرونهم كائنات أعلى لا يجوز الكلام إليها، كما لا يجوز الكلام مع الجن على ذرى الجبال وفي جوف المغارات، لأنهم بجميع الأحوال لن يفهموا لغتهم. لكان الأمر هيناً لو تعلق الأمر بحديث عارض في زاوية حديقة، باستفسار عن شيء في ركن شارع والإجابة باختصار، ولكن ما الذي يمكن لقروي بائس أن يتحدث به مع مدرس عالي الشأن، درس في المدن البعيدة وشاهد أقطار الدنيا، أرسلته الحكومة ليعلم أولادهم أسرار العالم كلها.

ينتظر الشباب ومتوسطو العمر من الشيوخ أن يستفتح أحدهم الكلام. سيفدين سليم أكبر رجال القرية سناً، على علم تام بعادات

القرويين وسلوكياتهم، يعلم أن مفاتيح الكلام في أوضاع كهذه بيد من مثله، وفي الأيام القليلة الماضية كان هو الوحيد الذي بنى أفضل العلاقات مع المدرس. لهذا يلتفت إليه ويقول:

– ماذا نفعل يا أستاذ! هذا دأبنا. نأتي بعد العشاء وانتهاء أعمالنا اليومية إلى المضافة لنستمع إلى عزف ناي شَفو.

– صوت الناي عذب ... لقد مضى زمن لم أسمع فيه ناياً يصدح بهذه الألحان الشجية.

يلتفت العجوز سيفدين إلى شَفو ويشير إليه بيده وكأن العازف سيرى حركته ويقول:

– فليشمل الله والدك برحمته يا شَفو. هيا تناول قصبة الناي ثانية واعزف لنا ألحانك الش... الشجية. بيننا الآن ضيف.

يتحسس العازف الأعمى شَفو بيده النايَ الملقى بجانبه وبنبرة الغارق في بحر من الظلام يقول:

– على الرحب والسعة أيها الضيف.

ينحني العازف على نايه، يضع رؤوس أنامله على الثقوب، فينساب من تلك القصبة لحن يشبه هبوب نسمة من واد سحيق أو أنين من قعر بئر غائرة.

شفو الأعمى يبصر أعماق المحيطين به، يسمع الآهات المتراكمة فيها والشهوات الدفينة على حوافها، ما إن يلمسها بلحن حتى تترقرق أعين الرجال كمداً على حبيبات ضعن، أو نساء لم يطالوهن، وخشية أن يلمح الآخرون الألم المتحدر من عيونهم، يهتفون بصيحات الاستحسان كي يقهروا القلق النابت بين أضلعهم كالرقى التي يضعونها في رقابهم. لكن شفو لا يأبه ويتغلغل في متاهة يرى فيها جنيات من نور أخضر كغلاف تميمته. تضطرم النار في فؤاده، فيسكبها دموعا من عينيه، عيني الأعمى. يغيب المدرس أيضاً عن نفسه. يرهف السمع بكيانه كله إلى أنين الناي ومشهد شفو الضرير.

من أعماق قلب المدرس وحتى حلقه يسري ألم خفيف يكاد يشعر بخروجه من أرنبة أنفه. يصغي بانتباه، بفضول وقلب يعصره الألم. تتموج النغمات وتذوب في هدوء المضافة. بعض المستمعين يطرقون رؤوسهم بحزن وأسىً، وبعضهم لا تفارق عيناه الناي مصدراً ألحانه. رويداً رويداً تتنمَّل شفتا العازف الأعمى، تتخدر أصابعه، يصدر آخر نغمة ببطء، وعلى مهل يبعد الناي عن شفتيه، يمدده عند ركبته ثانية ويقول كأنه يرى الجمع المتحلق حوله:

– هذه هي دنياي. إنها بهذا القدر يا سامعين.

يرد عليه سيفدين سليم بإعجاب:

– جعل الله دنياك أكثر نوراً وسعة يا شفو.

يقول المدرس بلهفة وأسى:

– سلمت أناملك، سلمت ألف مرة أيها الخال شفو.

ثم تُسمع من المجلس أصوات استحسان أخرى:

– عاشت أناملك.

– لا زالت يدك ندية.

– بارك الله فيك.

ينادي سيفدين سليم على الشاب رث الهيئة طالباً منه توزيع أقداح الشاي ثم يلتفت إلى الضيف الذي بجانبه ويحادثه بخفوت قائلاً:

– شَفو رجل بائس يا أستاذ. أتذكر طفولته.

أتذكر أنه أصيب في طفولته بداءٍ عجز والداه عن معالجته منه. هو الآن ... يا لبؤسه .. عيناه الاثنتان ... أسعد الله قلبه وكان في عونه! والشاب ذاك ولده.

يقف ابن شَفو بصينية الشاي أمام المدرس وسيفدين سليم، يضع أمام كل منهما كأسا ثم يعرج على الآخرين ليوزع عليهم «دم العصافير»، حسب وصف القرويين للشاي الأحمر القاني. في

هذه الأثناء يدخل المضافة رجلان، أحدهما كلتو مختار القرية الذي يعرفه المدرس، والآخر يرتدي زي أهل المدينة. بعد أن يخلع الاثنان أحذيتهما لدى الباب، يتوجه المختار إلى صدر المجلس ويصافح المدرس ثم يقلب نظراته وينظر إلى جهة الأحذية ناوياً الجلوس هناك حتى يجعل بينه وبين المدرس مسافة كافية تمنعه من التحدث إليه وجهاً لوجه. ومع أن شباب المجلس يتلاصقون ويفسحون له مكاناً فيما بينهم، إلا أن المختار يعود إلى أدنى المضافة ليجلس بقرب عازف الناي شَفو.

أما ذلك الشاب صاحب الزي المدني فإنه يصافح المدرس، يرحب به ويعرفه بنفسه كما يفعل أهل المدن قائلاً:

- أنا كَبران... كَبران باجو أيها الأستاذ!

يفسح المدرس له مكانا بجانبه ويقول مبدياً الاحترام:

- أهلاً وسهلاً. تفضل اجلس.

يأخذ كَبران باجو مكانا جوار المدرس. تتسع حدقات القرويين. تبدو على ملامحهم المستوحشة علائم خجل ورهبة، يخشون أن يتحدث كَبران باجو أحاديث سخيفة لا تليق بالمقام ويفضحهم أمام الموظف الضيف. ولكنهم إذ يرون أن الضيف يقابل حديث كَبران باجو باحترام بالغ، يتنفسون الصعداء وتتبدد مخاوفهم. تخفق

قلوبهم غبطةً لمرأى كبران باجو ويشعر بعضهم بالخجل في قرارة أنفسهم، يشعرون بالخجل لأنهم لم يقابلوا كبران باجو حتى هذه اللحظة بمثل هذا التقدير بينما يرون موظفاً بمكانة المدرس يبجله، بل ويفسح له مكاناً بجانبه. يرقب القرويون مشهد المتحدثين دون رهبة أو خجل مما قد يقوله كبران باجو، يستمعون إلى حوارهما ويرون أن ابن قريتهم يخاطب ضيفهم الموظف بأسلوب يفصح عن الاحترام ويقول له بلهجة أهل المدينة أنه من هذه القرية وأنه درس في كلية الآداب ولم يكمل دراسته لظروف مشؤومة. يرد الضيف على ابن قريتهم ويقول:

- بصراحة يا أخ كبران، أنا سعيد جدا بوجود شاب متعلم مثلك في القرية.

وسعادة المدرس هذه تظهر على وجهه وفي حماسته لدخول غمار حديث مطول مع جليسه الشاب. ترتسم علامات الفخر على وجوه كثير من القرويين لأن قريتهم أنجبت رجلاً مثل كبران باجو. لم يكن هذا الرجل، الذي يحدثه المدرس الآن باحترام بالغ، يحظى فيما مضى بأي احترام خاص من لدن أبناء قريته، لكنه يحظى في هذا المجلس بأعلى قدر من الهيبة وتحيطه هالة من الفخار والمجد، يبصرها القرويون بأعينهم الساذجة.

يبدو كَبران باجو وكأنه ينوء بأعباء مسؤولية عدم ترك المدرس لوحده ومباسطته في الحديث. يلتفت إلى المدرس ويقول له:

– آمل أن يكون ماء القرية وهواؤها قد أعجبكم يا أستاذ!

– لو حدثتكم باختصارٍ وصدق عمّا يجول في خاطري مذ وطئت قدماي قريتكم لقلتُ :إنني مسرور بكم وبقريتكم هذه كثيراً كثيراً. أشعر بسعادة غامرة إذ أرى أن التعليم في قرية كهذه أصبح من نصيبي».

يزداد إعجاب الحاضرين حين سماعهم المدرسَ يحدثهم عن سعادته، يحدقون فيه، ترتجف شفاه بعض القرويين إذ يتبسمون. يطرح سيفدين سليم سؤالاً على المدرس:

– كيف الأولاد يا أستاذ؟ هل يسببون لك الإزعاج أم لا؟

بالنسبة للمدرس هذا هو السؤال الأهم، وتحظى الإجابة عليه بالقدر ذاته من الأهمية. منذ أسبوع يدور سؤال كهذا مع احتمالات الإجابة عليه في خلده.

كان يريد أن يفتح باب هذا الموضوع ويتحدث للقرويين عنه. إنه يرى الفرصة ملائمة لبحث هذا الشأن، لكنه يجد الكلمات وقد ثقُلَت عليه فلا يعرف من أين يبدأ الإفصاح عن أفكاره، يضطر في النهاية إلى لملمة كلماته ويقول:

– لا. إنهم لا يسببون لي أي إزعاج. لكن .... لكن خلال هذه الأيام الأولى، ثمة أسئلة وأمور ... ثمة عُقَد ظهرت لي. عقد علينا أن نتشارك في حلها، نجيب عليها وننسق حلولها في منظومة فكرية تبنى على أسس علمية سليمة، بصرف النظر عن مشاق الحياة أو الحواجز التي تضعها أمام جيل المستقبل الناشئ.

وهنا أريد القول أولاً إن آلامكم ومسراتكم هي آلامي ومسراتي. أقول باختصار ووضوح إن وجع سنوات عديدة قد انتابني خلال هذه الأيام القليلة بينكم، لدغت أفعى طفلةً مسكينة نجاها الله برحمته من الموت، سمعت من تلاميذي قصصاً غريبة بعيدة عن العقل! أنتم تعرفون أن الأطفال مرآة مجتمعاتهم، يعكسون ما يرونه ويسمعونه ويتعلمونه، إنهم ينشأون على ذلك ويكبرون.

علينا إذن باعتبارنا أكبر منهم أن نسدي إليهم النصح وندلهم على صالحات الأعمال. علينا أن نعلمهم ألا يدسوا أيديهم في الثقوب، لا يقتلوا السلاحف ولا يذهبوا في الليل لاصطياد الضفادع ... نعم، صار لي عدة أيام أستمع إلى قصص من هذا القبيل.

وأود أن أسمع منكم أنتم آباء أولئك الأطفال هل أنتم على علم بهذا الجانب من حياة أبنائكم وكيف تنظرون إليه وما الذي يمكننا فعله جميعاً لأجلهم.

مع كلماته الأخيرة تلك، يتجول المدرس بنظراته بين الحاضرين في المجلس وينتظر منهم طرح آراء مختلفة بصدد الأطفال وأعمالهم. يبحث في ذهنه عن أفضل الإجابات وأنجع الأساليب لمناقشة هذا الموضوع بعقلانية وإيجاد الحلول له.

لكن سرعان ما يظهر أن القرويين لا يستوعبون، لا يستوعبون كيف أن موظفاً مثل المدرس يُشغِلُ نفسه بقتل الضفادع والسلاحف ويمتعض من الأمر، بل والأنكى من ذلك أنه يريد مناقشتهم حول هذا الموضوع!

لقد كان أي موظف سابق يأتي، يصدر الأوامر ويطلب ويأخذ وينتهي الأمر!... أما هذا المدرس فيبدوا أنه يختلف كليا عن الآخرين. صحيح أن كثيراً من كلماته تبقى غامضة عليهم، إلا أنهم يشعرون أنه قريب منهم، بل وقد يكون واحدا منهم، أرسلته قوى الخير لينقذهم من محنهم وينقذ أولادهم من شقاوتهم.

ومع أن بعض الجالسين يستنكر سرا أن يتدخل مدرس مهم في شؤون قتل الضفادع والسلاحف، إلا أن الجميع يلتزم الصمت، حتى يتطوع المختار بالكلام: أنت معلم مدرسة وتعرف أكثر منا، ليكن الأمر كما تريد.

يعود المدرس ليتكلم بلهجة أرق وأسلوب أوضح ويقول:

- لا يمكنني حل هذه المشكلة لدى الأولاد لوحدي. عليكم أن تساعدوني في البحث عن حل وإلا فلا.

يشعر بعض القرويين بأبوتهم من جديد ويدركون أن لهم دوراً في تربية الأطفال، ولكن أيَّ دور؟ ذلك ما لا يعلمونه. يلتفت العجوز سيفدين سليم إلى المدرس ويخاطبه كأنه من أهل البيت، كأنه أحد أبناء القرية قائلاً:

- ليكن كما تشاء يا أستاذ. لن يعرف الآخرون أكثر منك.

على مدى ثلاث ساعات ونصف يقدم المدرس اقتراحاته للقرويين بشأن أساليب التربية، يريد الإسهاب في هذا الموضوع.

القرويون الذين لا يفهمون كلامه صامتون، أما الذي يعرفون القليل من مقاصد المدرس فيرددون:

- سنفعل ما تراه مناسباً يا أستاذ ... وهل نعرف أفضل منك.

ولا يزيدون حرفاً على هذه الجملة.

وكمن يثير أحمقٌ ضحكَه، ينفجر كَبران باجو بالضحك فجأة ويتمتم قائلاً:

- قرويونا بسطاء جدا يا أستاذ ... لا يعرفون أن قتل السلاحف غير جائز.

يضحك سيفدين سليم والمدرس من كلمات كَبران باجو هذه، يشاركهما الضحك بعض الحاضرين. لكن فقي دِمسو يشير بيده إلى كَبران باجو بعصبية وكأن بينهما ما يعكر الصفو، ويقول:

– تتكلم هكذا بلغة مبطنة ظناً أن أحداً لا يفهمك يا كَبران. الله أعلم والجميع يعلمون أنك تستهزئ بنا نحن أهل هذه القرية. أليس من الصواب أن نقول: إننا لا نعرف؟ لكننا نعرف يا جبران أن الجميع قتلوا السلاحف في طفولتهم. حتى أنت أيضاً قتلت السلاحف واصطدت الضفادع وفقأت أعينها. إنهم أطفال، ماذا سيفعلون إن لم يقتلوا السلاحف؟ ماذا عليهم أن يفعلوا؟ أيقتل بعضهم بعضاً؟

– هل من الضروري أن يقتل الأطفال شيئاً؟

– لا يا كَبران لا ... لا أقول إنه ضروري ولكن الطفولة في هذه القرية هي هكذا وكانت هكذا.

ماذا نفعل؟ هل نحمل هراواتنا ونمنع الأطفال؟

– لا يمكن حل الموضوع بالهراوات.....

– ما الذي لا يمكن حله يا كَبران؟ أنى لنا أن نقول للأطفال لا تفعلوا كذا وكذا!... إنهم أطفال ... سيقتلون السلاحف، سيلاحقون السحالي ويركضون وراء الضِّباب ويقتلونها. ليبتعدوا عن أفعال السوء وليقتلوا كما يشاؤون.

– وما هي أفعال السوء؟

– ما هي؟ قم وانظر ماذا فعلوا في شرفة غرفتنا الكبيرة. من أجل الوصول إلى فراخ العصافير، خربوها. الأشقياء! أحدهم ابني آرام. والله لقد أشبعته ضرباً لا تتحمله الحمير....

– لا يمكن حل هذا الموضوع بالضرب أيضاً.

– حسنا، بماذا يمكن حله؟ أنت أعلمنا، هاتِ أخبرنا بما يجب علينا فعله يا أستاذ كَبران؟

– ماذا أعلمكم؟ فكروا أنتم بأنفسكم ودبروا حلا لكم ولمشاكلكم التي لا تنتهي.

يبسط سيفدين سليم كفيه بيأس ويخاطب المدرس:

– ليحمهم الله! أولاد هذه الأيام أشقياء وعنيدون. بفضل الله وفضل المعلم سيتلقون قليلاً من التربية الصالحة.

يثير هذا الحوار نوعاً من الرهبة لدى المدرس، إنه يخشى أن يكون القرويون على علم بما يفعله أولادهم ولا يعبأون بذلك. يفهم المدرس من خلال حديث القرويين أنهم يعتمدون عليه في هذه القضية وأنه الوحيد المعني بالأمر! يكرر ما قاله من أن القضية تحتاج إلى تعاونهم معه وأن على أمهات الأطفال وآبائهم أن يعلموهم. يشرح المدرس

ثانية طرق التربية وأساليبها للقرويين المجتمعين في المجلس. يصغون إليه لكنهم لا يعرفون أو لا يريدون التعقيب على كلامه بشيء.

حول هذا الموضوع، يشاركه الحديث أحياناً كَبران باجو ويبدي آراءه، ويقول إن أساليب التربية الجيدة لا يمكن أن تطبق في القرية. تبقى المناقشة محصورة بين كبران باجو والمدرس بعد انسحاب القرويين من معمعان الجدال. إنهم يصغون الآن بصمت ويسمعون لأول مرة ألفاظاً مذهلة كالفلسفة والتربية والسيكولوجيا.

للمرة الرابعة تدور كؤوس الشاي على الحاضرين. تصل السهرة إلى نهايتها ويحين موعد انصراف الناس.

يصل المدرس إلى قناعة بأن الوحيد الذي يمكنه التحدث إليه والتعامل معه هو كبران باجو. في الفناء الممتد أمام المضافة يودع القرويون بعضهم بعضاً، بينما يبدي المدرس سروره بلقاء كبران باجو ويطلب منه أن يتلاقيا قريباً.

***

تميل الشمس إلى الغروب. التلاميذ يذهبون إلى بيوتهم، والمدرس وكبران باجو يلتقيان. إنهما يجلسان على كرسيين أمام جدار حجرة

الدرس يستمتعان بشمس الأصيل ويتناقشان. نوافذ الصف مفتوحة. أحد التلاميذ يرش الماء على أرضية الصف وآخر يكنس. لا تمضي سوى برهة قصيرة حتى يغادر التلميذان الحجرة مع حقيبتيهما. يخبران المدرس أنهما قاما بتنظيف الحجرة. يمسح على رأسيهما ويقول:

– أحسنتما، مرحى! انصرفا الآن وانشغلا بوظائفكما.

يبتعد التلميذان عنهما وينصرفان إلى البيت. يتعقبهما المدرس بنظراته، يرثي لحالهما ثم يلتفت إلى كَبران باجو قائلاً:

– كان من الأفضل لو قام قرويان بأعمال تنظيف حجرة الدرس. حينها يمكن صرف راتب شهري أو سنوي لهما! إن التلاميذ المساكين يشقون كثيراً في عمل التنظيف وأمامهم وظائف البيت المدرسية أيضاً.

يضع كبران باجو حقيبته على الأرض ويسندها إلى قائمة من قوائم الكرسي ويقول متنهداً:

– قرويونا ليسوا مستعدين لذلك.

– ليسوا مستعدين لماذا؟

– لهذا الإصلاح.

يحدق المدرس مبتسما إلى وجه كَبران باجو ويقول:

– أهذا إصلاح يا أخ كبران؟

– بالنسبة لقروينا هو إصلاح ... وإصلاح خارج عن المألوف يا أستاذ.

– كيف هو إصلاح خارج عن المألوف يا أخ كبران؟ إنه أمر لصالح التلاميذ، على الأقل سيذهبون بعد الانصراف إلى بيوتهم وينشغلون بحل وظائفهم بدل العمل على تنظيف حجرة درسهم.

– أياً كانت الغاية من الكلام فلتكن، المهم أن ما لم تألفه القرية من قبل لا يمكن إقناع أهلها بالقبول به...

– لا أفهم لماذا لن تحظى الاقتراحات المفيدة بالقبول؟ لو حاول المرء إقناعهم بجدوى الاقتراحات فلماذا لن يقبلوا يا أخ كبران؟ أأنا أقول شيئاً خاطئاً؟

– لا أدعي أنك مخطئ يا أستاذ. إنك على صواب وتفكر بواقعية. لكنك تغفل عن أمر هام، إنك لا تعرف طبائع أهل قريتنا، إنهم لا يهتمون بدراسة أطفالهم ولا براحتهم.

يربت المدرس على ركبة كَبران باجو كأنه يقول له .نا معك فيما تقول.ثم يردف قائلاً:

– حسنا، حسنا، لكنني أرى أن على المرء أن يجد سبيلاً، يحدثهم حول الموضوع وينبههم إليه.

– قل ما تشاء قوله يا أستاذ لكنهم لن يقتنعوا.

– أعتقد أنك تقسو على القرويين يا أخ كبران ... لقد رأيت وأرى بعيني أنك لا تلقي بالاً لمعايير القرويين. إنك تخاطبهم بمقاييسك المعرفية.

– طيب، بمقاييس من أخاطبهم إذن؟

– كلمهم على قدر عقولهم.

– وهل أنا أخاطبهم بالعربية؟....انظر يا أستاذ إنهم أهل قريتي وأنا أعرفهم. صدقني إنني أعرف جيداً أنه لا تأثير للعقل والنظر واللغة التي وهبهم الله إياها .... هل صدقت الآن؟

– في هذه النقطة أوافقك الرأي يا أخ كبران، ولكن على المرء ألا ينسى أنهم قرويون ولكي يقنعهم بشيء عليه أن يتواضع لمستواهم.

هنا تثور ثائرة كبران باجو، فيلوح بيديه، ويعتدل في جلسته على الكرسي، يحدق في عيني المدرس ويقول:

– إن نزلت إلى مستواهم، صدقني أنك ستبقى هنا .... بعبارة

أخرى ستبقى عند حدود مستوى تفكيرهم يا أستاذ ... ستغرق وتنتهي. بمجرد التفكير على هوى معاييرهم ستضيق عليك هذه الأزقة في القرية، وستنزل عليك البلايا، ستشعر بالغثيان وتتقيأ. ستتقيأ في داخلك وعليهم .... سترى أنهم يشرئبون بأعناقهم في كل ركن، في فناء كل دار ومن نوافذ كل بيت، يراقبون حالتك مثل العفاريت والجن. باختصار ستتحول القرية إلى متاهة جن لن تخرج منها أبداً. وما يدور في خلدك من أفكار ستتحول إلى عقد شيطانية لن تقدر على حلها. عندئذ .... عندئذ سيسخرون منك ويضحكون عليك. سيصيبونك بالجنون ويطلقونك في البراري كما فعلوا معي. فلتسألهم يوماً عني. لا ... لا تذهب بعيداً بل اسأل والدي عني. أعلم علم اليقين أنهم سيقولون لك إن كبران مصاب في عقله بلوثة. نعم ... إنهم بعقولهم الخفيفة تلك يشيعون عن المرء أموراً كهذه. إذن كيف ستنزل إلى مستويات تفكيرهم أنت المثقف المتعلم يا أستاذ.

يدرك المدرس أن القرويين وكبران باجو ليسوا على وئام. يدرك أن القرويين يتهمونه بالجنون لكنه لا يسأله لماذا؟ يشفق على كبران باجو ويخاطبه بلطف قائلاً:

– أفهم يا أخ كبران، تختلف نسبة المعرفة من متعلم إلى قروي.

تحليلهم للأمور يختلف كلياً.

من على عينيه غشاوةٌ لا يعرف التسامح، ولنفترض أن هذه هي حقيقة القرويين، وأنا معك، ولكن ما الواجب الذي يقع على عاتق المتعلمين في هذه الحالة؟ ما أعرفه أن عنيداً جاهلاً لا يؤاخذ على عناده، أما بالنسبة للعقلاء فالأمر يختلف. إنه لعار كبير على العاقل أن لا يتفهم جهل الآخرين.

يطرق كَبران باجو لحظة، ثم يقول بانكسار شديد ويأس:

- تبدو كأنك تريد أن تبرر الجنون.

- استنتج خلاصة كلامي كما تشاء يا أخ كبران. لكنني أردت القول إن على المتعلم العاقل أن يكلم كل شخص على هوى تفكيره ويسايره.

ثمة عنيدون، متهورون، حمقى ومجانين .... لكن ... لكن الذكاء يكمن في القدرة على التعامل مع كل هؤلاء. وهذا ما يستطيعه ذوو العقل، أصحاب اللسان الطلي وعقلية التسامح بالمحاورة.

- حاورتهم وتحدثت إليهم يا أستاذ. جئتهم باللين. تحدثت إلى أكثر من شيخ وعالم دين. لقد حدثتهم إلى أن نبت الشعر على لساني ... لكن صدقني لا ينفع الكلام مع هؤلاء... هؤلاء البشر. كيف أشرح لك؟ سأضرب لك مثلاً حادثة صغيرة يا أستاذ. كان لي ابن عم

في حدود الحادية عشرة من عمره. كان عمي يرسله في الليالي المظلمة الماطرة لرعي الجداء والخراف، كان يوقظه في منتصف الليل ويبعثه لإطعام ثيران الحراثة. كم قلت لعمي: لا تبعث هذا الولد لوحده في الليل. لكن عمي كان يرد علي قائلاً: لا. فليذهب لوحده. فليصبح رجلاً عركته الليالي المظلمة. هكذا سيفرق بين النور والظلمة جيداً. كنت أرجوه وأقول له: إنه ولد صغير، سيعتريه الخوف. لكنه بقي مصراً على رأيه. في النهاية كان الأمر كما توقعت. وحسب قول زوجة عمي فقد بات الولد لوحده ذات ليلة من ليالي الربيع عند ثور الحراثة. وعندما ذهبت لتأخذ الفطور إلى عمي رأت الولد جالساً مطرق الرأس ممعن الفكر. سألته زوجة عمي إن كان مريضاً. لكنه حدق في وجه أمه دون أن ينبس ببنت شفة.

ومنذ ذلك اليوم لم يسمع أحد صوته. لقد أصابه الخَرَسُ ولم يعد يتكلم. عندما سمعت بالخبر تألمت لحاله كثيراً. كنت أحبه كأنه أخي الصغير. كان له شعر أسود مجعد وعينان زرقاوان .... كان وسيما جداً، تبدو عليه منذ طفولته أمارات النباهة. ولأجل أن يعود إلى سابق عهده ويتكلم كنت ألاعبه وأتحدث إليه.

كنت أقول لعمي: فلنأخذه إلى الطبيب لمعاينته. لكن عمي ما كان يقتنع. أراد أن يأخذه إلى المشايخ. كانت زوجة عمي المسكينة

تقف عاجزة مستكينة أمام وضع ولدها الأخرس وتذرف العبرات. بينما أصر عمي على رأيه وجال بابنه من قرية لقرية ومن شيخ لشيخ. إلى أن جاء يوم أصبح فيه ابن عمي مريضاً طريح الفراش. لم يعد يستسيغ طعاماً أو شراباً. كانت زوجة عمي تبلل خرقة ماء وتقربها من شفتيه المتيبستين. كان كل ذلك دون جدوى إلى أن أسلم ذلك الصغير البريء الروح إلى بارئها.

مع انتهاء الجملة الأخيرة يسود صمت مطبق. عينا كَبران باجو مغرورقتان بالدمع. يدس يده في جيبه، يخرج علبة تبغه ويلف سيجارة. ما يزال الاثنان غارقين في الصمت. تبدو على ملامح كبران باجو علائم ارتياح خفيف بعد سرده لتلك الحادثة، يقدم علبة تبغه للمدرس قائلاً بتنهد:

– تفضل يا أستاذ.

ثم يردف:

– ما العمل! ما الذي سيفعله الأطفال المساكين في وضع كهذا؟

رقةٌ تدرك قلب المدرس. مطرقا يلف سيجارة ويفكر في سبيل إلى حل هذه المعضلات. يبقى صامتاً ثم يقول بصوت خافت:

– يبدو أن الولد عانى رعباً شديداً. ليتكم أدركتموه وأخذتموه إلى طبيب.

يسحب كبران باجو نفسين مديدين من لفافة تبغه. يشير بيده إلى القرية بعصبية ويقول:

– مادام ثمة حمقى في هذه القرية فلن يستطيع أحد ... لن يستطيع أحد فعل عمل جيد.

يشعل المدرس لفافته. يقول متمتماً وكأنه ما يزال تحت تأثير القصة السابقة:

– إنه الرعب ... الرعب ... لقد سيطر الرعب على الولد.

– طبعاً هو الرعب. ولو كان في مكانه أشجع الناس لغلب عليه الرعب. يعقدون مجالسهم في الليالي ويبدأون الحكايات ... حكايات عن السحرة والإصابة بالعين والعفاريت والجن. كل ذلك دون أن يُقْصوا الأطفال عن مجالسهم.

– صحيح. في نمط الحياة القروية خاصة يصادف المرءُ أموراً غريبة كثيرة. لذلك على المرء أن يحاول إبعاد القرويين عنها بروية وعلى مهل بالقول والعمل.

يأخذ كبران باجو النفس الأخير من لفافته. ينفخ دخاناً أزرق كتيماً من فمه، وكمن لم يقتنع بذلك الحديث يهز يديه ويبقى صامتاً. يرى المدرس أن كلماته وآراءه لم تحظ بقبول كبران باجو. يريد شد لجام الحديث وتوجيهه وجهة أخرى فيقول:

- كنت تتحدث عن كلية الآداب يا أخ كبران. ألم تكمل دراستك فيها؟

- لا. لقد تركت الدراسة يا أستاذ.

- لماذا؟

يشير كبران باجو بيديه الاثنتين هذه المرة إلى القرية ويقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

- بسبب حمق أهل هذه القرية.

ينظر إليه المدرس مبتسماً هو أيضاً ويعيد كلامه بتردد في صيغة سؤال:

- بسبب حمق أهل هذه القرية؟

- نعم. لكن لا تسلني كيف ولماذا؟

يرثي المدرس لحال كبران باجو ويقول في نفسه: يبدو أن هذا المسكين يُشغل نفسه كثيراً بهؤلاء القرويين. لكنه يبقى صامتاً في مكانه وعيونه مليئة بالأسئلة والنظرات الفضولية.

ينتبه كبران باجو للأمر، يشعر بالأسئلة التي تدور في رأس المدرس وقلبه، يُكْرِه شفتيه على الابتسام وكمن يكمل قصة بلغت منتصفها يقول:

– وضعنا المادي يا أستاذ، إن لم يكن أفضل من أوضاع الآخرين في القرية، فهو ليس بأسوأ منها. وفي الواقع فإن مصروف بيتنا ليس كثيراً. أنا الولد البكر في العائلة ووحيدها. وكما تقول أمي فقد حملت من بعدي عدة مرات لكنها أجهضت ... في الربيع كنت في السنة الثانية في كلية الآداب.

كنت في بعض الأحيان أزور القرية أيام العطل الدراسية للاطمئنان على والديَّ اللذين كان يستفسران ببالغ السرور عن أحوالي وأحوال دراستي. لكنني عندما عدت إلى البيت في عطلة الربيع، لم تكن الأوضاع في بيتنا كما كانت، لم ألاحظ فرح الأيام السابقة التي كنت أصل فيها إلى البيت. لم أر الضحك والبسمات المعهودة مرتسمة على وجهي أبي وأمي.

كانت صفرةٌ تعلو وجه أمي، وملامحُها كئيبة ويحاصرها اليأس. كانت، ساعة دخلت البيت، جالسة أمام الموقد، وبمجرد أن لمحتني اختنقت حنجرتها ببكاء مرٍّ وارتجفت شفتاها. سارعت إلى احتضانها وسألت عن أحوالها وأحوال أبي. لم يكن أبي في البيت. خفت في البداية قليلاً. خشيت أن يكون قد حصل له مكروه لكن أمي سرعان ما شرحت لي سبب حزنها وهي تتنهد: هكذا يا بني ... والدك الأخرق، وفي هذه السن، يريد أن يتزوج عليّ. عقدت الدهشة

لساني بعد ما سردته أمي. ما كنت أريد تصديق كلامها ولكني كنت على يقين بأنها لا تمازحني. أما أبي فلم يكن يتحدث في هذا الأمر من قبل ولم أسمع منه شيئاً بهذا الخصوص. لكنه وفي أوقات غضبه من أمي كان يزمجر ويعيِّرُها قائلاً لها: أيتها البقرة المجهضة! أيتها العنزة العاقر!. أما سوى تلك الأوقات فقد كان أبي يبدو حكيماً ويقول: كثرة العيال تعني كثرة المصائب .... يكفينا هذا الولد لو أحسنا تربيته وصار له شأن في المستقبل. وأنا على يقين بأنه بناء على فكرته تلك أرسلني للدراسة في الجامعة.

بعد شكوى أمي تلك، سيطر الخوف علي، لم أفصح لها بظنوني لكنني قلت في نفسي: إن لم يكن الخَرَفُ قد أصاب والدي، فإنه في طريقه إلى الجنون. لم يمض سوى قليل من الوقت حتى حضر. نهضت وانحنيت على يده وقبلتها وسألت عن حاله. اكتشفت على الفور أن أقوال أمي وشكواها كانت صحيحة. لم يكن أبي متحمساً للسؤال عني وعن دراستي كما كان في المرات السابقة، بدا وكأن مشاعره قد فَتَرت تجاهي وتجاهها.

كل ما بدر منه كان فقط ترحيباً بارداً، بعدها أدار لنا ظهره وذهب إلى غرفته. في تلك اللحظة لفت نظري أمر رأيته لأول مرة في مظهر أبي، كان قد صبغ شاربيه والشعر القليل المتبقي في رأسه. بقي برهة

قصيرة ثم عاد إلينا في الإيوان. أعتقد أنه أدرك أن والدتي قد أخبرتني بكل شيء وما بقي هناك شيء يخفيه عني. قال كمن لا يربطه بهذا البيت أي علاقة: أكيد روت لك أمك قصتنا يا كَبران. يبدو أنني وأمك لم نعد على وئام. كانت أمي المسكينة البريئة تهيج نار الموقد بملقط في يدها. أردت أن أعرف من أبي تفاصيل الموضوع فقلت له: ما الذي يسبب عدم الوئام بينك وبين والدتي يا أبي؟.

.ا أعرف.... أجاب ثم أردف قائلاً: لماذا لم أفعل ما أمرني به عقلي منذ البداية! ها أنا مضطر الآن لسماع أمك ذات اللسان الطويل!. قلت له في انكسار مطرقاً رأسي في هيئة الراجي: هل هذا طول لسان يا أبي؟ أمي تحكي الصدق. لا يليق بك أن تتزوج ثانية وأنت في هذا العمر. أراد أبي أن يقنعني في البداية بضرورة وجود إخوة لي وأخوات، وأنه لا بد من النسل لحفظ اسم العائلة، بعدها مال على أمي وقال: من وراء رأس أمك تبهدلت بين الناس.

إن بيتاً بلا أولاد، بلا عقب....بئرٌ جافة ناضبة. التفتت أمي بخجلِ بئرٍ غارت مياهها وبوجه حزين قالت له: إذن فلتزوج كبران! لقد بلغ خمسة وعشرين عاماً. أشار أبي بيده إلى فناء الدار قائلاً: سأزوجه، وسيمتلئ البيت بقطيع من الأطفال يلعبون في فنائه. لكن لينتهِ أولاً من دراسته. غلب النشيج أمي وتمتمت ببؤس شديد:

لا أريد ضرة كتلك! ... ضرة من بيت دمسو... لقد طلبوا مهرها غربالاً من الذهب. يريدون أن يقاسمونا أرضنا أيضاً.!

طشف لي كلام أمي من هي الفتاة التي ستصبح ضرتها، من أي بيت هي وكم تبلغ من العمر... في تلك اللحظة بدا والدي في نظري صخرة سوداء، فقدت احترامي الدائم له. وبعد أن أخبرته بأن ما يزمع عليه بعيد عن المنطق، أطرق رأسه وتمتم كمن يحاول البحث عن وسيلة يدافع بها عن نفسه ويبرر فعلته: ماذا أفعل؟...ما الذي يضير لو ... لماذا لا يحق لي الزواج ثانية؟.

بدت لي الأمور واضحة ودون أن أمعن في التفكير كثيراً قلت: افعل ما بدا لك... نفذ ما عزمت عليه ... لكن لا تنس أن ابنة بيت دمسو تصغرني بثلاثة عشر عاماً. بتعبير آخر فقد بلغتَ من العمر واحداً وخمسين عاماً وهي في الثانية عشرة... ما الذي سيقوله الناس؟ ألن نصبح أضحوكة لهم؟ .... دع عنك الآن كل شيء وقل بحق الله، أنت وطفلة في الثانية عشرة! أليس عملاً يرفضه العقل؟. وقبل أن يتفوه والدي، قالت أمي: ومن قال لك إنه يخشى الله ويستحي من رسوله!.

التفت أبي نحوها وقال برأس مرفوع: لا ترشديني إلى الطريق القويم برأسك الصغير ذاك... أي خوف وأي حياء تتحدثين عنه! ألم

يكن لنبينا زوجات كثيرات! وكلهن بالحلال!.... ألم يكن عمره قد ناف على الخمسين عندما تزوج بحضرة السيدة عائشة!»

فكرت يا أستاذ في قصص الضرائر ومصاعب حياتهن. فلأختصر لك الحديث... لم أرد على والدي بعد ذلك، لم أقل كلمة واحدة بل قمت وتهيأت للعودة في نفس اليوم. قبل أن أودع والدي أفهمته أنني سأغرق في وحل الخجل من الناس لو قام بفعلته تلك. أردت أن أقول له إن الزواج بالموتى أفضل من الزواج بالصغيرات، لكنني أحجمت عن ذلك بل قلت له: لو تزوجت فإنني سآخذ والدتي ونرحل.... سنذهب بعيداً عنك. ثم خرجت وعدت إلى المدينة.

ها... تذكرت... قبل أن أصل إلى المدينة.... هاهنا، (يرفع يده نحو الجهة اليمنى، يشير إلى الساحة الترابية بجانب المدرسة) في هذه الساحة الترابية التقيت دمسو. بعد التحية والترحيب والكلمات الفارغة، قلت له: علاقتكم بوالدي لا تعقل يا فقي دمسو. ما الرد الذي تتخيله من فقي دمسو؟ ..... كدأب أي أحمق آخر رد علي قائلاً: إن الحساد وسيئي الطوية كثيرون في قريتنا يا كبران.

هل تظن أننا سنجد أفضل من أبيك!. كدت أقول أنه لا يوجد أسوأ من أبي بفعلته هذه لكنني سكت لأنني كنت أعرف أن كلامي لن يجدي نفعاً.

كنت أعرف أنه واحد منهم، واحد من أصحاب الطينة السيئة هؤلاء! لن أثقل عليك بالكلام يا أستاذ. قضيت عطلتي الدراسية في غرفتي الصغيرة بالمدينة. لأسبوعين لم أذهب إلى المحاضرات. نأيت بنفسي عن دروسي وزملائي. في الأسبوع الثالث أدركت أنني لن أستطيع التركيز وسماع المحاضرات.

كنت أفكر في وضع أبي وأمي. وفي نهاية الأمر خلفت الدراسة ورائي وعدت أدراجي إلى القرية.... عدت إلى القرية ورأيت والدتي في فناء دار عمي. ارتمت في حضني بعينين مغرورقتين وأعلمتني أن والدي ركب رأسه وتزوج. كانوا قد أتوا بزوجة أبي على فرس ترافقها صيحات الصلاة على النبي وأنغام الدفوف والأهازيج. في غرفتنا الكبيرة اجتمع المحتفلون، أسندوا ظهورهم إلى المخدات وافترشوا بسط اللباد المزخرفة وتناولوا الشربات، رددوا أحاديث نبوية، وتلوا أمر الله ونبيه.... وبهذا الزواج الشرعي أصبحت لي زوجة أب تصغرني بثلاثة عشر عاماً يا أستاذ.

بعد سماعه تلك القصة، يتفهم المدرس أسباب بثّ كبران باجو لواعجه. لكنه مع ذلك يحاول التفريج عن همه فيقول:

– ليست هذه كبرى المصائب يا أخ كبران. الحقيقة أنها مشكلة، لكنها ليست مشكلتي ومشكلتك فحسب.

ففي مجتمعاتنا ثمة عادات قديمة عفنة مستمرة للآن. في كل مجتمع تظهر إلى السطح عادات كهذه. وفي مجتمعاتنا أيضاً ثمة أخطاء ونواقص. شئت أم لم تشأ ستبقى هذه العادات. لكن... يجب على المرء العمل بروية ويبدأ من صغائر الأمور. بالقول والنصح والصبر الجميل.

يشير كبران باجو بيده إلى القرية ويقول:

– فلتمعن التفكير في أمر هذه القرية. ليس فقط أبي أو عمي، بل الجميع.... كل واحد في القرية أسوأ من الآخر. ستكتشف بنفسك بعد بضعة أشهر مدى حمقهم وخفة أحلامهم وقربهم من الجنون. سترى أن.....

يضع المدرس يده على كتف كبران باجو، يقاطعه، يميل إلى الأمام قليلاً.... يميل عليه ويقول:

– أعرف يا أخ كبران... أعرف أنني سأصادف الحالات التي تتحدث عنها حالة حالة، لكن على المرء... أنا بنفسي..... أنا أقسم لك أنني لن أهرب منهم بل سأكافح وأنخرط بين صفوفهم لأدلهم على الخطأ والصواب.... وكل هذه الأمور.... كل هذه الأمور كما سبق وقلت لأخي وأكرر القول، ستحل بالكلام والنصح والصبر الجميل.

يدرك كبران باجو أن همةَ المدرس لن تفتُرَ وأنهما لن يستطيعا الاتفاق على الرأي بصدد القرويين وطبائعهم. ينظر بيأس في عيني المدرس ويقول له:

– طيب يا أستاذ..... فليكن الله في عونك! ليتني استطعت المكوث في هذه القرية لنتزاور ونتجاذب أطراف الحديث عن هذا الموضوع بين الفينة والأخرى. إنني على يقين من أنك كنت ستقول لي وفي هذا المكان نفسه: يا أخ كبران، كم كانت آراؤك سديدة. لكن واحسرتاه يا أستاذ.....غداً في الصباح الباكر سأصطحب أمي وأرحل بعيداً عن هذه القرية. وسأقيم في مدينة غريبة.

أريد أن أعيد ما قلته لك وكنصيحة أخوية أكرر القول: أمامك في هذه القرية سبيلان يا أستاذ، أحدهما نمط حياة هؤلاء القرويين. والآخر حياتك الخاصة.

أنت حر في الاختيار بينهما ولا سبيل ثالث أمامك.

مع هذه الكلمات يحمل كَبران باجو حقيبته المسنودة إلى إحدى قوائم الكرسي، يفتحها ويتمتم: يبدو أن وصف عادات قريتنا مستحيل سواء بالكلام أو حتى بالكتابة..يخرج رزمة ورق من حقيبته، يمدها للمدرس ويواصل الحديث قائلاً: انظر يا أستاذ، كنت قد بدأت بتأليف كتاب عن قريتنا. لكنني لم أكمله. ماكنت أحلم

به لم يتحقق.... بعبارة أخرى لقد هُزِمْت. أردت أن..... تفضل، سأسلمك هذه المسودة من كتابي فاقرأها. أرجو أن يساعدك ما فيه لفهم القرية وأهلها».

يفرح المدرس كثيراً. يستلم رزمة الأوراق من يد كبران باجو بسرور، يقلب بضعة أوراق، يثني عليه ويقول: هذه بادرة جديرة بتقدير كبير يا أخ كبران، ليتك داومت عليها وأتممت هذا العمل المقدس.... أبارك لك قيامك بهذه الخطوة. إنه عمل رائع. لقد أبهجتني.

عند جدار المدرسة هناك، يشعل كل منهما سيجارة أخرى، ومع الدخان المتصاعد فوقهما يتموج الحديث رقيقاً شفيفاً كأشعة الشمس الآفلة للغروب في الأفق البعيد . ومع غروب الشمس ينحدر كَبران باجو صوب القرية بينما يدلف المدرس، وهو يحمل رزمة الأوراق، إلى مبنى المدرسة.

***

أيها القارئ العزيز!

أعلم جيداً أنك ستبدأ شكواك منذ الآن وتقول: ها هي كذبة أخرى. كذبة كبرى بحجم كتاب. كذبة أضيفت إلى أخريات وأنا

مضطر لقراءتها. أنا معك في هذا! ليس فقط أنا وأنت، بل حتى كبار الكتاب كثيراً ما يشكون طرائق الكتابة هذه الأيام ويقولون: الإنسان تابع أمين للفكر. ومنذ مئات السنين فهو يفكر. في البدء كتب على الخشب والصخور، ثم على النصب والمسلات المنحوتة من الحجر الأبيض. وعلى ورق البردي دوّن أفكاره بالهيروغليفية. والآن فإن الإنسان يفكر ويدون الفكر بين دفتي كتاب. وهذا هو بالضبط الجانب الأسوأ للكتاب: إنه محصور بين دفتين! فعلى الصخور والحجارة المنصوبة في العراء كان الكذب صعباً جداً. لأن أشعة الشمس كانت قوية جداً.

لكن الإنسان سرعان ما انسحب للسكن في جذوع الشجر وجوف الكهوف والمعابد. هناك وجد الإنسان لنفسه مكاناً ليختلق الأكاذيب. إن الكتاب بحد ذاته كهف عميق، كهف له دفتان. ولا أفضل من هذا الكهف لممارسة الكذب. الكاتب صادق في قوله هذا، وأنت صادق وأنا معكما يا قارئي العزيز.

صحيح.... صحيح أن مهنة الكتابة تشبه في كثير من الأحيان اختلاق الأكاذيب. هؤلاء الذين انطلقوا على وجه الأرض، أنا أقول الكتاب وأنت قل عنهم مهرجين، هؤلاء الذين انطلقوا على وجه الأرض يؤلفون بفضل الأقلام والأوراق التي هي هبة الخالق،

روايات وقصصاً عن عدد الأغصان والأوراق التي على شجرة، أو عن حب القطط..... أو كيف تتناكح الكلاب وإلى ما هنالك من هذه الأمور.

وكما قلت، فأنا معك إلى حد ما. لكنني أقسم لك برأسي ورؤوس كل أولئك القديسين وأقول: سأبذل قصارى جهدي لأنأى بنفسي عن هذا الفعل الخسيس. لا نية لي على الإطلاق أن أنسج لك الأكاذيب. وصدقني لولا أني رأيت ذلك أمراً هاماً، لما تكبدت هذه المشقة ولما حرمتك من وقتك الثمين. وبصريح العبارة، فإن بيني وبين أهل قريتي مسألة يجب أن تجد لها حلاً: إنهم يزعمون أني قد جننت. وأنا...صحيح، لقد تبللت بمطر هذه القرية لكنني لن أقول لهم الآن شيئاً. لاحقاً سأفعل.

لكنني من الآن، باسمي وباسم جميع أهل القرية أرجوك أن تحكم بضميرك وتقول بلا خوف ولا وجل، أي الفريقين ضل سواء السبيل، أنا أم هم!

ملاحظة: لن أسمي هنا أحداً باسمه أو كنيته او اسم عشيرته، لكنني سأسميهم كما اعتادوا هم على تسمية بعضهم بعضاً. فهم يتنابزون بالألقاب. ومع أنها ألقاب كريهة وسيئة فإنهم يتنابزون بها ليس فقط حينما يتشاجرون أو يتمازحون، بل ينادي بعضهم بعضاً

بتلك الألقاب حتى في أوقات الله العادية أيضاً. وعلي أن أبين هنا أنه لا أحد سوى أهل القرية يعرف أصحاب هذه الألقاب. وهذا بالطبع أفضل، فما استحدثه أهل قريتنا من كلمات وألقاب يجب أن يبقى فيما بينهم ولا يطلع عليها أحد سواهم.

***

لو استثنينا بيت الشيخ، والمسجد وبيوت جماعة النَوَر الذين يقيمون هنا في فصل الشتاء، فإن قريتنا تستلقي بأبنيتها السبعين بين جبلين. من بعيد تلوح قريتنا كأي قرية أخرى. فهناك في أعلاها كروم وفي أسفلها بساتين وحواكير بصل. في الجهة الغربية من قريتنا كهوف وحجارة ووديان عميقة. وفي الشرق، تمتد المقبرة و مزار .الا دينان».

ولضاحية مالا دينان الواقعة بين قبور أموات السنين السالفة حرمة كبيرة. وعلى ذمة أهل قريتنا، كذباً كان ذلك أم صدقاً فهو قولهم، فقد شفيت هناك كثير من الأفواه المعوجة، وزال الوباء عن قطعان الغنم، وكثير من النساء العاقرات لذن بحمى ضاحية مالا دينان فأصبحن ولودات.

سواء في الليل أو في النهار، فإن الأشجار العتيقة في تلك الضاحية تخلق في قريتنا عتمة ورهبة. ومن بين أربعمائة وعشرين نسمة فيها فإن هناك على الأقل ثمانية عقورين، عشرة مجانين، عشرين مسكونين، مائة حمقى، مائتا أبله، والبقية غير معروف ما هم عليه.

بعبارة أخرى، سأقول هنا لو أن قريتنا سورت بجدار من حجر وفتحت أبواب ونوافذ في هذا السور الحجري واستقدم المختصون من الممرضين والدكاترة والأطباء النفسانيين إليها، فإنها ستكون مستشفى مجانين مثالياً .وكما يجب فعله فسنبدأ تصوير بعض منازل القرية من الحي الشمالي.

في الشمال الغربي من قريتنا توجد بئر كبيرة يستسقي منها معظم أهل القرية ماء شربهم ويسقون دوابهم منها، وكثيراً ما يغتسلون عند هذه البئر. لذلك لا بد أن ترى من الفجر وحتى حلول المساء بعضاً من أهل القرية حولها.

لكن قدسية هذه البئر ليست بسبب مائها فقط. إنها محطة اجتماعات أيضاً. وهي مرتع النميمة. فإذا أرادت نساء قريتنا وفتياتها (وهن يردن ذلك بالتأكيد) أن يجتمعن ليتحدثن عن امرأة ما أو فتاة أو شاب من القرية فليس هناك نقطة اجتماع أفضل من البئر، بل هي هبة من الله لهن. نعم.... كنت أريد البدء بتصوير منازل القرية.

## المنزل: 1

بجانب هذه البئر «العظيمة» يقع منزل بوزنيكال راعي بقر القرية. بين منزله وبين البئر مسافة ثلاثة أمراس. نافذة غرفة البيت تواجه البئر مباشرة. أي أن المنزل مكان استراتيجي لشباب وشابات قريتنا. فكثير من الشبان العاشقين يأتون إلى منزل راعي البقر ويتفرجون على البنات من تلك النافذة. (بل يوجد في قريتنا رجال متزوجون يراقبون النسوة أيضاً). يلوّح الشباب للفتيات بمناديلهم بل ويشيرون لهم بالمرايا. لذلك توجد دائماً مرآة في جيب كل شاب وصعلوك من قريتنا.

العجيب في الأمر أن جميع من في القرية على علم بقصة هذا المنزل وتلك النافذة. لكن لا أحد يبدي امتعاضاً شديداً من الأمر. ومع أنه وقبل ثلاث سنوات من الآن فوجئ بعض المنافحين العظام عن الشرف بالأمر وهددوا راعي البقر وطالبوا جميع من في المنزل بسد تلك النافذة نهائياً، إلا أن الله لطف ببنات قريتنا وشبابها، فأجابهم الراعي بوزنيكال: «أقول لكم بوضوح. إن نافذة بيتي هي نافذة القلوب، ولا يجوز للمرء أن يسد مثل هذه النوافذ المقدسة. وإن شئتم فتفضلوا واذبحوني أنا وأفراد عائلتي وسدوا هذه النافذة برؤوسنا المقطوعة».

منذ ذلك اليوم، صارت كلمات بوزنيكال شعاراً يلوكه الشباب والشابات في القرية مثل لبان. حتى أن الرغبة تستبد بهم لكتابة أقوال بوزنيكال على الصخور والجدران.

لكن منزل راعي البقر لا يطيب للشباب وحدهم، بل والحق يقال، فإن كل فرد في عائلة الرجل يمتاز بطلاوة اللسان وعذوبة الحديث، وهم مع الأطفال أطفال ومع البالغين بالغون! ربما جاء ذلك من مهنة رعي البقر! وليكن سبب هذه الميزة ما يكون، فإن المهم في هذه الحياة أن يكون المرء على علاقات طيبة مع الجميع. وعائلة راعي البقر تستوفي هذه الصفة.

إن أفرادها متواضعون ولو كان أمر ما بمعايير أهل قريتنا سيئاً فإن الأمر ذاته وبمعايير عائلة بوزنيكال الخاصة عادي. الخلاصة أنه وقبل ثلاث سنوات من الآن كان في قريتنا معلم طائش. عبر هذه النافذة (التي بات القارئ يعرفها) أغوى ابنة شيخ القرية وأتى بها وقبلها في بيت راعي البقر. لكن أفراد العائلة لم يعترضوا ولم يقولوا لهما: إنكما تستغلان بيتنا. بكلمة أخرى فإن الأكثر ديمقراطية في قريتنا هم عائلة بيت بوزنيكال راعي بقر القرية.

في هذه العائلة جانب واحد فقط ، جانب واحد فقط غير طبيعي ولا يستسيغه أهل القرية. ويختصر الأمر فيما يلي: سواء كان صدقاً

أو زوراً وبهتاناً فإن ما يتلقفه أفراد ذلك البيت من قصص وحكايات عن ناس القرية، يصبح مادة للتحليل لديهم ثم لتوزيع تلك القصص والأقاويل بين الناس وإشاعتها في كل زاوية من القرية. حتى أن نبأ حادثة معلم القرية الطائش وابنة الشيخ قد أذيع من هذا البيت.

ماذا يفعلون وبأي وسيلة يتمكنون من نشر القصص هكذا سريعاً! الله وحده يعلم.

حتى أن كبار القرية ومسنيها قد قالوا كلمة فيهم ذهبت مثلا، وهي: «يمكن للفسوة أن تمكث في بيت بوزنيكال، ولكن لا يمكن لحديث أن يبقى رهين ذلك البيت».

**المنزل**: 2

لصق منزل راعي بقر القرية، يوجد منزل كبير من طابقين. مبنى جميل بناه صاحب الدار بيديه. يقال «فلان يحصل على خبز يومه من الحجارة» وهذا المثل ينطبق تماماً على هذا البيت، بسلبياته وإيجابياته. فإن جميع رجال هذا البيت يعملون في البناء بمجرد أن يبلغوا سن الرشد. كذلك فإن جميع موسري قريتنا يسلمون أمر بناء دورهم إلى هؤلاء الرجال. وبعبارة أخرى فإن رجال هذا البيت يستخرجون رزقهم من حجارة البناء.

لكن الذي يشاع عن هذا المنزل في قريتنا غير حسن، فهم يقولون إن أهل الدار مفتنون مفسدون كذابون ولو تطلب الأمر لتدبروا أمرهم بالنفاق والمداهنة. في السنوات الأخيرة بدأ أهل قريتنا يستعملون كلمة النفاق بدل المداهنة! وحسب أقوال شيب القرية ومعمريها فإن هذا دأب أهل ذاك البيت منذ القدم.

أي أن طبيعة النفاق متأصلة فيهم ويرثها الخلف عن السلف. طبيعة لا تتغير فيهم أبداً.

وفي الوقت الحالي فإن رب هذا البيت رجل طويل القامة ذو شارب أشقر كث نافر ولذلك يلقبه أهل القربة باسم سمبيلبوق. وحينما يرتدي هذا ثيابه ويمشي في أزقة القرية فإن رهبة تداخل قلب من يراه دون أن يعرفه.

مع ذلك يعرف أهل القرية أنه بالرغم من شواربه الكثة الغليظة وقامته المديدة، لا يجاريه في الدنيا أحد في الجبن. وحسب قول أحد القرويين فإنه سقط مغشياً عليه وراء صخرة خلال شجار بين قريتنا وقرية مجاورة.

لذلك فهم يستهزئون به ويقولون: «إذا جد الجد، فما علينا إلا أن نظهر للأعداء شوارب سمبيلبوق وقامته ثم نسحبه من الميدان».
ولكن في كثير من الأحيان فإن النساء وخاصة نساء قريتنا ينجذبن

إلى هذا الصنف من الرجال. فهذا الشخص، أي سمبيلبوق بتسمية أهل القرية، زوج لثلاث نساء. كل منهن على شاكلة تختلف عن الأخرى. إحداهن شقراء والأخرى سمراء غير جميلة، من السمراوات اللواتي..... لا، لا يجوز أن أسميهن. لا أعرف كم عدد أبناء سمبيلبوق وهذا لا يهم أبداً.

فالمهم هو أن يعرف المرء أن كثيرين من الأولاد من نسل زوجتيه الأوليين يلعبون اليوم في باحة دار سمبيلبوق. ويستطيع المرء التمييز بينهم كما بين القمح والذرة. وسوى هذه الزوجات فإن لسمبيلبوق علاقة ببعض أرامل القرية أيضاً. وعلى ذمة أهل القرية، فإن طيش هذا الرجل وعهره وصل إلى درجة أن قصصه تجذب الخيال أكثر من الروايات الفاجرة. ولقد نبهه أهل القرية كثيراً وقالوا له:

– لا تذهب إلى بيوت الأرامل في كل وقت. وإلا فإن العار سيلحق باسمك.

لكنه كان يرد عليهم كل مرة بالقول:

– لا تظنوا السوء بي. فإنني أساعدهن وأقطع لهن الحطب.

ولكنه ذات يوم في مخزن التبن في بيت إحدى الأرامل، وبدل أن يكرر حديثه عن تقطيع الحطب صار يبحث عن مخرج شرعي لورطته تلك فلم يجد بداً من طلب يد تلك الأرملة.

وحسب تكهنات أهل قريتنا فإن سمبيلبوق ما يزال بالرغم من كونه زوجاً لثلاث نساء يبحث عن أخريات.

واعتماداً على طبائعهم الخاصة فإن متعلمي قريتنا أطلقوا على هذا البيت اسم بيت الدون جوان! فشباب قريتنا المتعلمون الرائعون يستعملون مثل هذه الكلمات الغامضة والغريبة. يفعلون هكذا تعمية. لكن في كثير من الأحيان فإن لغة معمري القرية لا تستوعب مثل هذه المفردات الغريبة الغامضة. في البداية استعملوا صفة صريحة جداً لا أستطيع ذكرها هنا.

لكنهم فيما بعد خففوا من صراحة الصفة واستعملوا كلمة صفة «بيت أصحاب التكك الرخوة». إن هذه الصفة تبدو أفضل من صفة الدون جوان وهي في محلها. فليس رجالهم فحسب، بل إن نساءهم أيضاً ذوات تكك رخوة.

و يشاع منذ فترة أن ابنتهم تجلس في باحة الدار بدون سروال وترفع ثوبها إلى ركبتيها لتغسل الثياب. على ذمة الذين ينقلون ذلك، يقولون إن هذه الفتاة من بيت سمبيلبوق تتبول واقفة.

لذلك فإن شباب قريتنا ومراهقيها يذهبون كلما عن لهم إلى بيت سمبيلبوق ويغسلون وجوههم بماء المعصية.

المنزل: 3

أسفل بيت سمبيلبوق، يوجد منزل فسيح الأرجاء. وبدون شك فإن هذا هو أوسع وأكبر بيت في قريتنا. ويقطن هذا البيت ثلاثة وثلاثون شخصاً. وفي كل يوم من أيام الله يتم عجن كيس من الدقيق في باحة هذا البيت وتصنع منه الأرغفة على الصفيح. وحينما يرى المرء استعدادات العشاء في هذا البيت فإنه يتبادر إلى الذهن أن حفلة مولد أو فرح تقام فيه. ذلك الخبز وذلك العشاء كله فقط لأولئك النفر الثلاثة والثلاثين.

صغار هذه العائلة وكبارها مرتبطون بعضهم ببعض برباط وثيق، بحيث لا يستطيع شيء أو أحد أن يفرقهم... لا فقط شيء واحد.... شيء واحد يستطيع تفريقهم وهو الموت بقضاء الله وقدره.

في شبابه، كان كبير العائلة كوبو قد قال لأخويه الصغيرين: «سنعيش سوية ونبقى مع بعض حتى الموت».

ومنذ ذلك التاريخ، فإن أولاد الحلال الثلاثة هؤلاء، يعيشون مع زوجاتهم وأطفالهم في بيت واحد.

وعلاوة على فتيات العائلة اللاتي يتزوجن أبناء عمومتهم، فالفتيات اللواتي يأتين من خارج البيت ويتزوجن فيه، لا يستطعن بعد ذلك مغادرته.

بعبارة أخرى فإن المرأة التي تصبح زوجة في بيت كوبو، تبقى حبيسة فيه حتى الموت تماماً مثل ذبابة تقع في جرة دبس. لقد أصبح هذا الأمر عرفاً من أعراف هذا البيت وتقاليده المتبعة. ولذلك فإن فتيات هذا البيت يتطلعن دائماً للزواج بشباب من خارج المنزل. لأنهن يعلمن.... يعلمن أنهن لو سلمن بكارتهن لأحد من أولاد عمومتهن فهذا يعني أنهن سيبقين رهينات في هذا البيت إلى ساعة الممات.

وقبل حوالي سنة ونصف السنة من الآن مات شقيق كوبو الأوسط. ليس المهم ما هو سبب الموت، لكن كوبو وشقيقه الأصغر جافْبَلوق تشاورا وتباحثا في موضوع أرمل شقيقهم المتوفي التي هي عرضه وشرفه. ولكي لا يستولي غريب على هذا الشرف فإن جافبلوق اقترح على أخيه كوبو: «فلنزوجها من ابنك. صحيح أنه لم يتجاوز الثالثة عشرة لكن هذا غير مهم».

لكن كوبو اقترح أن يتزوج أخوه جافبلوق نفسه من أرملة أخيهما. وهكذا قبل حوالي سنة من الآن عقد كوبو، الابن الأكبر في العائلة، قران أرمل أخيه المتوفى على أخيه الأصغر جافبلوق. لكن قبل أربعة أشهر مات جافبلوق وكأن الله أعطاهم بذلك إشارة بأن ما فعلوه كان إثماً.

إن كان ما فعلوه خطأً أم صواباً فهذا علمه عند الله. لكن اليوم فإن أرملتَي شقيقي كوبو قد آلتا إليه بالنهاية. وإلى الآن لم تنتشر تعليقات أهل قريتنا بصدد هذا الوضع.

**المنزل: 4**

لو مشى المرء في صف منازل قريتنا باتجاه الأسفل، فإنه سيصادف في جهة الغرب منزلاً آخر بطابقين.

هذا هو منزل «نص حاج» حانوتي قريتنا. ولا يوجد في قريتنا حانوت أو مركز تسوق سوى حانوت نص حاج.

ثمة حوانيت أو تجار يخسرون تجارتهم بعد مدة، وربما وفقوا وصعدوا للأعلى وبانت عليهم مظاهر الثراء، لكن نص حاج هو هو. فلا يؤثر عليه لا التضخم الاقتصادي ولا حتى أشد حالات انخفاض قيمة العملة.

وما يبيعه حانوتينا ليس كثيراً أصلاً. وسوى بعض الأطفال الأشقياء، فقد تمر أحياناً بضعة أشهر دون أن يطرق باب حانوته أحد المشترين. ولكن إن احتاج أحدهم لإبرة أو حجر قدح فإنه يطرق باب نص حاج.

ويا لافتخاره الشديد آنذاك! يا إلهي! فليكن الذي يشغله من أو ما يكون، إنه يترك كل شيء بين يديه وبخيلاء حانوتي كبير يتجه صوب غرفة نومه ويفتح الباب ثم يتناول من رف فوق كوة صندوقا صغيرا، ويأخذ مفاتيحه من حزامه ويجربها مفتاحاً مفتاحاً حتى يفتح أحدها قفل الصندوق.

وكمن تعلم الحساب حديثا، فإنه يقيس كل شيء بالمال الذي صار يعبده. بالنسبة له لا فرق إن كان المال كثيراً أو قليلاً، ولا إن كانت العملة صغيرة أم كبيرة. فالمال مال.

إن أشقياء وأشرار قريتنا، وهم كثر، يعرفون طبيعة نص حاج هذه. فحينما يرون أنه عازم على الذهاب للحراثة ويحمل النير على كتفيه، أو حين يشد المناجل والأمراس على ظهر حماره ويوشك على الذهاب لجمع الحطب، في هذه اللحظة... في هذه اللحظة بالذات يتجه أحدهم إلى الساحة الترابية خلف المنازل ويلحق نص حاج ويخبره بحاجته إلى شراء حجر قدح. ودون أن يعترض، يدع نص حاج كل ما في يده ويعود للبيت ليتناول ذلك الصندوق الصغير ويبيع حجر قدح لذلك الشقي. وهناك من الأشرار من يريد ذلك بالدين ويماطلون نص حاج حتى موسم الحصاد، دون أن يتذمر أو يتبين عليه الغضب.

إلا أنه يتمتم لنفسه: «أنا وفي ليميني، لن أعطي بالدين. فالدين من علامات الشوئم».

وإن سأل أحدهم نص حاج وقال: كيف يكون الدين من علامات الشوئم. فإنه يسرد هذه الحكاية:

– حسب تعليمات شركة باصات نقل الحجاج كان علي أن أكون ذلك الصباح في التاسعة والنصف في محطة سيارات المدينة. استيقظت وحاولت أن أصل في الوقت المحدد فأشير إلى سيارة لتقلني إلى محطة انطلاق باصات الحجاج. ودعت الذين صادفوني في الطريق في الساحة التي تقع خلف المنازل. إنهم جميعاً على قيد الحياة ويعرفون القصة. وقبل أن أصل إلى الطريق سمعت صوتاً يناديني من الخلف. التفت فرأيت ابن عائلة زيبو يلحق بي. الله لا يسامحه..... الخبيث! التفت إليه وقلت: «خيراً يا ولد! ماذا تريد؟»

أخبرني أنه يريد شراء حجر قدح وتوسل إلي قائلا: «فليتقبل الله حجك. يا حاج! إن لم أحصل على الحجر الآن فسأبقى إلى حين عودتك بدون حجر وبدون قداحة. يا حاج.....».

لم أكسر بخاطره. من هناك، حيث كنت قريباً من الطريق الذي تمر عليه السيارات، عدنا أنا وذلك الـ.... عدنا بسرعة. وفي البيت فتحت الصندوق وأعطيت ذلك الولد حجر قدح. طلب

حجرين... ثم سألني بتذلل وانكسار أن أبيعه بالدين. يمكن، لا يمكن. تبادلنا هاتين العبارتين. أخيراً رق قلبي وقلت له: «طيب... إلى حين عودتي».

ومضيت من جديد صوب طريق السيارات. لكن سيارات الصباح جميعاً كانت قد غادرت. في الضحى ظهرت سيارة فرفعت لها يدي لكنها لم تقف. لسوء حظي كانت السيارة مليئة بالركاب ذلك اليوم. وفوق سطحها كان هناك ركاب أيضاً. لكنها لو كانت وقفت لاعتليتها وتشبثت بمكان ما على السطح. لكنها لم تقف. زالت شمس الضحى قليلاً فجاءت سيارة أخرى ووقفت لي. ركبتها. لكن قلبي كان ينبض بالخوف حتى وصلت إلى المدينة. كنت أخاف أن يفوتني ركب الحجاج. وفي المحطة صدق حدسي. فاتني الركب. وأعلمني موظفو المحطة أنهم سيرسلونني إلى محطة في مدينة أخرى. رأيت أن الأمر غير ممكن. إذ لم أكن أعرف اللغة ولا كان لي معارف هناك. فعدت غاضباً مقهوراً إلى القرية...

ومنذ ذلك اليوم حلف الحاج ألا يبيع بالدين. شهد على قسمه أهل القرية، حيث وقف خريف السنة الماضية في ساحة القرية وأقسم أنه لن يبيع بالدين بعد الآن.

ومن ذلك اليوم يطلق عليه سكان قريتنا اسم نص حاج.

المنزل: 5

في الجهة الشرقية العليا من قريتنا يوجد منزل واطئ. جداره الذي يواجه القرية يرتفع عن الأرض مقدار أربعة أمتار أما الجدار الخلفي فيرتفع بضعة أشبار عن الطريق المارة خلف المنزل. وهي الطريق الوحيدة التي تفصل المنزل عن المقبرة.

حينما يدلف المرء عبر باب الدار إلى هذا المنزل فإنه يرى من نافذة المضافة رأساً حاسراً. هذا الرأس الحاسر هو رأس ابن قريتنا جَفْتو.

جَفتو يجلس طوال الوقت قرب نافذته وفي يده قطعة ورق أو دفتر أو كتاب. في الأيام الرطبة المظلمة يكون في الداخل، أما في الأيام الدافئة المشرقة فإنه يكون خارجاً. وقد عمل لنفسه في الداخل قرب مصطبة رفاً صغيراً وضع عليه الكتب والأوراق القابلة للقراءة مثل رستم زال، علي وكربلاء، القوى الخفية، فن التنجيم وتفسير الأحلام. في قريتنا إذن يوجد رجل صاحب مكتبة، ولتكن مكتبته هذه رف كتب، المهم أنها كتب. وكلما صدف أن رأى مستمعاً، فإنه يفتح كتاباً من كتبه ويقرأ. ومع كل جملة يقرأها، يبدأ شرحاً في ثلاث أو أربع جمل ليستوعب مستمعه جيداً.

في كل يوم من أيام الله، لا بد أن يتواجد في باحة منزل جَفتو ثلة من شباب القرية، ينقلون إلى بيته الإقط والحمص والجبن الحامض

الرديء بالغرابيل. ويكشفون له خبايا قلوبهم ويبوحون بآلامهم حتى يستطيع جفتو بما في كتبه من حكمة إيجاد علاج لهم وجواب لما يكابدونه من نيران الحب.

كثيراً ما يذهب شباب قريتنا إلى جفتو ويشكون إليه (شكاوى شباب قريتنا متشابهة قليلاً أو كثيرا): «أنا أحب تلك الفتاة بجنون. لكنها لا تعبأ بي. ماذا أفعل؟»

هنا يعمد جفتو إلى أحد كتبه، ينزله من الرف ويفرد صفحاته كما يفعل الجهابذة، يقرأ قليلاً ثم يقول:

«اذهب وافعل التالي: اجمع أربعين حبة من الباقلاء اليابسة. اكتب على عشرة منها كلمة يا حنان وعلى عشرة يا منان وعلى عشرة يا ديان وعلى العشرة الأخيرة اكتب كلمة يا سلطان. ثم اقرأ على كل حبة منها « آمن الرسول» وألقها في النار. وأثناء إلقائك تلك الحبات في النار عليك أن تبتهل وتقول: فلتحترق فلانة بنت فلان بنيران حبي كما تحترق حبات الباقلاء هذه. ثم تقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات وتقرأ الصلاة على النبي ثلاث مرات. وإلى أن تحترق تلك الحبات الأربعون فإن فتاتك ستهيم بك حباً».

ولأنه لا توجد في قريتنا باقلاء، فإن جَفتو أوجد بديلاً عنه لشباب قريتنا وقال:

«إن لم تجدوا حبات الباقلاء يمكنكم التوسل بهذا الدعاء: يا كافي، يا غني، يا علي، يا ولي، يا عزيز، يا رحيم، يا رب، يا ذا الجلال، يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما يريد، بالحق أحييتنا برحمتك يا رحمن يا رحيم. ولتكن قراءتكم لهذا الدعاء على طعام أو وردة أو منديل ثم انفخوا عليه. وليعط الشاب قليلاً من ذلك الطعام لمحبوبته، أوليدعها تشم تلك الوردة أو ذلك المنديل مثلاً. وهكذا ستحبه الفتاة وتنجذب إليه».

وبسبب علم جَفتو الواسع هذا، فإن كل أهل القرية كانوا يجلونه ويحترمونه وليس شبابها فقط ويزداد إجلالهم له حين يتحدث عن الأحلام وتفسيرها. حينها يريد الجميع الإصغاء إليه.

ولكن بعد إشاعة مشؤومة انقلب السحر على الساحر وفقد جَفتو احترام الناس وتقديرهم له. إن أهل القرية يقولون عنه هذه الأيام: «إنه زير نساء».

وعلى ذمة الراوي، فإنه ذات مرة وحين كان يفسر مناماً لأرمل، مد يده إلى صدرها. والأرمل التي كانت قد ذهبت إليه كانت قد روت له أنها رأت في المنام شقياً يتحرش بها ويمد يده إليها. كان جفتو غارقاً في قراءة كتاب تفسير الأحلام. قرأ من إحدى صفحاته بضعة أسطر ثم قال:

- أين مد يده ذلك الشقي؟

استحت الأرمل قليلاً، أطرقت برأسها، ودون أن تنظر في وجه جفتو، رفعت يديها إلى ثدييها وقالت:

- مد يده إلى صدري.

انحنى جفتو مرة ثانية على الكتاب وقال:

- هل مد يداً واحدة أم يديه الاثنتين؟

قالت الأرمل وقد احمر وجهها خجلا:

- في البداية مد يداً واحدة..... ثم مد اليد الأخرى أيضاً.

أطرق جفتو برهة من الزمن، أمعن النظر في الكتاب ثم قال للأرمل:

- هل حاولت المقاومة؟ ألم تمانعي ذلك الشقي؟ ألم تهربي؟

عقل الخجل لسان المرأة ولم تحر جواباً، فأعاد جفتو سؤاله بصيغة أخرى وقال:

- ألم تصرخي وتستغيثي؟

ردت عليه بخجل وصوت خفيض:

- لا.. لا أتذكر.

قلب جفتو الصفحة، وقرأ من صفحة أخرى بضعة أسطر ثم نظر

إلى وجه المرأة وقال لها:

- الصراخ والاستغاثة في المنامات ليس أمراً محموداً. لكن تذكري جيداً ماذا فعلت بالضبط في تلك اللحظة. ولنتخيل أنك الآن تحلمين وأن ذلك الشقي مد يده... نعم مد يده إلى صدرك هكذا....

وبكلماته هذه، مد جفتو يديه إلى صدر الأرمل متظاهراً بأنه نائم. ثم وضع يديه على ثديي المرأة ودنا بوجهه من وجهها. ثم تمدد ومددها بجانبه.

ومع أن أهل القرية يزعمون أن جفتو فعل غير ذلك كثيراً من الأمور، إلا أنني لن أطيل. بل سأختصر وأقول لو رأى أحد من أهل القرية جفتو أمام أو خلف تلك النافذة يقرأ قطعة ورق، فإنه يقول في سره: «هاهو يقرأ... إنه يقبقب مثل حجل منتظراً فريسته».

المنزل: 6

أمام منزل جفتو هذا، يقع منزلٌ مباركٌ....لا! بل منزلُ شيطانٍ....لا، ليس ذاك أيضاً. قفوا! سأبدأ بالتفصيل أولاً، ثم عليكم أن تجدوا اسماً جديراً بهذا المنزل. لأن أهل قريتنا أيضاً لم يتفقوا إلى الآن على لقب له.

الله واحد أحد، لكن كان لهذا البيت ثلاثة أرباب! رجل وامرأة ولهما بنت عانس عوراء وحيدة. ومع ذلك فإن أهل قريتنا لم يرغبوا أو خافوا التعامل الحميم مع أفراد هذه العائلة.

«هذا بيت منحوس»، كان القرويون يرددون وينأون بأنفسهم عنه. حتى أنهم باتوا يعتقدون أن أي اتصال مع أفراد ذلك المنزل ولو كان تحية صغيرة أو زيارة ما، يسبب موت أحد أو نزاعاً. وعلى كل حال كانوا يتجنبون هذا البيت ويقولون: «لولا الأعياد المقدسة، لما طرق أحد باب فستوج».

ووراء هذا الخوف وتلك الاعتقادات حكاية طويلة. وفي الحقيقة فإنها حكاية طويلة ومديدة مثل عمر الفتاة العانس في بيت فستوج. وحسب ما يروى فإن امرأة فستوج كانت حبلى ببنتها هذه. وذات يوم كانت نائمة في إيوان دارها فوق مصطبة بينما فستوج في الباحة مشغول بأمر ما. فجأة سمع الرجل صرخة طفل. غمرته فرحة لأنه سيصبح أباً وبتلك الفرحة اندفع إلى المصطبة في الإيوان وبقلب خافق مد يده إلى ما بين فخذي زوجته عله يجد الوليد. لكنه لم ير شيئاً وأدرك أن ما سمعه كان بكاء الطفل في بطن أمه. إلا أن أهل قريتنا لم يصدقوا الحكاية وقالوا: «هذا الأمر بعيد عن العقل ولا يمكن حدوثه».

لكن حادثة أغرب من هذه صادفتهم بعد ذلك. فقد ولدت بنت لهذه العائلة. وذات يوم ذهبت إحدى الجارات لتستعير مسلة منهم. قامت زوجة فستوج وبحثت عن المسلة فلم ترها. بحثت في كل مكان ولكن دون جدوى. لعنت الشيطان الرجيم ثم التفتت إلى جارتها وقالت: «لم أجد المسلة».

في هذه اللحظة نطقت الطفلة في القماط وهي بعد لم تبلغ الأربعين يوماً وقالت : «المسلة قرب باب مخزن الذرة».

وبالفعل وجدوا المسلة مرمية هناك.

ولو لم تشهد الجارة حادثة نطق الطفلة الصغيرة وهي في قماطها، لما صدق أحد أمها. لكن أهل القرية بدأوا يقولون منذ ذلك اليوم: لهذه العائلة جانب خفي مظلم. إنها شؤم. إن شؤم هذه العائلة يطال المرء. يطال القرية بأسرها. وحسب أقوال أهل قريتنا فإنهم لم يعاينوا الأمر مرة أو مرتين فقط، بل فكروا وحاولوا وتجادلوا وتشاوروا فيما بينهم حتى توصلوا إلى أن اقتنعوا تماما بوجود جانب خفي مظلم لهذه العائلة، عائلة فستوج، وأنها طير الشؤم.

والحوادث التي أوصلت أهل القرية إلى تلك القناعة كثيرة، لكن أسوأها هو ما حصل ذات يوم أمام مسجد القرية. كان أهل القرية قد اجتمعوا أمام باب المسجد لإقامة الصلاة. لمح بعض الشباب

الفضوليين فستوج متجهاً أيضاً إلى بيت الله. أراد أولئك الشباب معرفة مدى شؤم فستوج وعائلته. كان فستوج واقفاً مثل غيره ينتظر موعد صلاة الجمعة. الله وحده يعلم لماذا، في هذه الأثناء ضحك أحد الشباب الفضوليين ولكي لا يثير الشاب بضحكه انتباه أحد، نظر إلى ساعته وقال بينه وبين نفسه:

- لقد تأخر الوقت! انتظرنا طويلاً.

لسوء الحظ سمع صوفي جَرْبان ما قاله الشاب الفضولي، فنظر بغضب إليه وقال:

- ها نحن نسمع اليوم ما لم نسمعه قبلاً ولا سمعه آباؤنا! ما قلة الأدب هذه؟ على أساس أنه مسلم..يا!

نظر الشاب صاحب الساعة إلى صوفي جَرْبان وقال:

- إذا لم أكن مسلماً، فماذا أكون يا صوفي جربان؟

هز صوفي جَرْبان يده وأشار بها إلى ناحية الشاب وقال:

- أنت مهرج ولا شيء آخر!...لا يجوز على المرء أن يستهزئ! صلاة الجمعة يجب أن تكون في وقتها!

لكن الشاب رد عليه بالقول:

- حسناً...أدِّ أنت صلاتك في وقتها يا صوفي جَرْبان . من ذا

الذي حال بينك وبين الوقت يا مهدوم الدار؟

احتد صوفي جربان فقال:

- مهدوم الدار أنت ومائة أب من آبائك يا مهرج؟

تعالى صوت صوفي جربان وحاول المؤمنون المجتمعون أمام باب بيت الله أن يفضوا شجاره مع الشاب. لكنهما تدافعا بين الرجال وتبادلا أفحش السباب. ثم اتسعت رقعة الشجار حين ظهر مؤيدون لكل منهما وحمل كل فريق حجارة. لكن بعض الطيبين توسلوا إلى الجمع المستعد للقتال فهدأت النفوس.

ثم...ثم تحدث قرويونا عن ذلك النزاع، تباحثوا في شأنه حتى استقر رأيهم في نهاية الأمر أن يذهبوا إلى فستوج، وبالفعل ذهبوا إليه وقالوا له:

- كرامة لله يا رجل. لأجل سلامة قريتنا لا تحضر مجالسنا. إن فيك شيئا جنياً شيطانياً، لا تعلم به أنت نفسك.

ومنذ ذلك اليوم وحد رجال القرية موقفهم من عائلة فستوج. لا ليس الرجال وحدهم، فحتى نساء القرية كن يأتين على سيرة الزوجة والبنت قائلات: «عيونهما حسودة، تصيب المرء بالعين».

وحينما كانت زوجة فستوج وابنتها تمشيان في أزقة القرية، فإن

نساء قريتنا كن يخبئن أطفالهن لحمايتهم من الإصابة بالعين.

ولكن بالرغم من كل هذا فإن آل فستوج لم يغضبوا من تصرفات أهل القرية ولم يعبأوا بالجفاء وظلوا ينامون قريري الأعين. الاستثناء الوحيد كان ذات ليلة حالكة من ليالي أواسط الربيع، حيث كانت الرعود تقصف وكأن صخوراً عظيمة تتدحرج على أسطح المنازل. في مثل هذه الليالي يشهد القرويون الذين يسهرون أن المنازل تهتز. من هؤلاء القرويين الذين كانوا سهرانين تلك الليلة كان صاحبنا فستوج. كان ينظر وهو على فراشه من خلال النافذة وكانت نظراته تلك تنفذ إلى الخارج وتذهب للأعالي نحو الغيوم السوداء. وفجأة تنقض صاعقة طولها ألف مرس ومرس[3] من تلك الأعالي.

حتى أكثر الأبصار صحة وقوة يغشاها نور تلك الصاعقة ويكاد يخطفها. قام فستوج من فراشه، أشعل الفانوس وذهب صوب الاصطبل ليعلف فرسه.

لحظة دخوله الاصطبل رأى فارساً أبيض ممتطياً فرسه. فارساً بلا أذرع ولا أرجل يشبه قطعة غيم بيضاء. داخله رعب من هول المنظر فأطبق جفنيه وفتحهما عدة مرات ليعرف ما ذاك الذي على فرسه! رأى في ضوء الفانوس ظل فرسه على الجدار المقابل، لكنه

(3) المرس والحبل: يستعملهما المؤلف كوحدة قياس

لم ير ظل الفارس. بادئ الأمر قال لنفسه: هذا الفارس روح من الأرواح السماوية، لذلك لا ظل له. وسرعان ما يداخله الشك فقال: لقد تقدم بي العمر، ما أراه ليس إلا محض خيال. لكنه سمع صوتاً يشبه الحشرجة وكأنه صادر من حنجرة صدئة: ألم تشبع من هذه الدنيا؟

سيطر رعب لا يوصف على فستوج فتيبست شفتاه وجف فمه. بكل ما فيه من قوة هرب من صمت الاصطبل ورهبة النفس وذلك الفارس الأبيض. وحينما وصل أخيراً إلى فراشه لمع برق شديد أضاء جنبات الغرفة ورأى وجه زوجته بيروس. جلس بجانبها بهدوء. تلمس فراشها بيده وقال متلعثماً: «قو... بير.... هيا قومي بيروس».

نهضت بيروس العجوز. رأت زوجها وفي يده الفانوس. وعلى سنا ضوء البرق الفضي الذي يملأ الغرفة بين الحين والآخر، شاهدت وجه زوجها الذي جففه الرعب. وحين أخبر فستوج زوجته عن الفارس الأبيض، استبد بالمرأة فضول يخالطه الخوف. ولكي يتغلب الزوجان على خوفهما ذهبا وأيقظا ابنتهما سوسن أيضاً. ذهب الثلاثة صوب الاصطبل. كان الباب مفتوحاً والفرس في مكانها المعتاد لكن لم يكن ثمة لا فارس أبيض ولا شيء خارج المألوف. لم

يدنُ أحد من الفرس. ومن بعيد وأمام باب الاصطبل رفع فستوج الفانوس فوق رأسه بإحدى يديه وبيده الأخرى أشار لزوجته وابنته إلى المكان الذي ظهر فيه الفارس الأبيض. لكن لا أثر لما تراءى له، لقد تبخر في الهواء.

بعد تلك الليلة تجول فستوج لمدة يومين في القرية، روى لكل من صادفه حادثة الاصطبل لكن لا أحد اهتم به أو استمع إليه. أخيراً قرر فجأة أن يلتزم بيته ويبقى طريح الفراش منتظراً الموت. وسرعان ما انتشر خبره في القرية بأسرها.

وبالرغم من النحس الملازم للعائلة فإن الجيران القريبين ومن ثم أهل القرية كلهم كانوا يجتمعون لديه ويقولون له:

– قم وانهض يا فستوج فالموت ما يزال بعيداً عنك.

لكنه يرد عليهم وكأنه يريد الرحيل من هذه الدنيا اليوم قبل الغد:

– لا. إن ساعة موتي ليست بعيدة. صحيح أنني لا أشكو من أي مرض، لكني أرى موتي.. أراه مثل شعاع ملون يأتي لزيارتي ويدخل جسمي فأشعر نفسي خفيفاً.

أضاءت نافذة غرفة فستوج مرتين ثم أظلمت مرتين، فقال له القرويون المتحلقون حول رأسه:

– قم الآن ولا تتمرد على الله.

لكن كلمات القرويين هذه لم تتمكن من إخراجه من الفراش. كان ينهض فقط في أوقات الصلاة والطعام، يصلي، يتناول طعامه ثم يعود إلى فراشه.

بعد ثلاثة أيام انفض القرويون ولم يعودوا لزيارته وكأنهم اقتنعوا بأنه لن يموت الآن. لم يبق معه أحد سوى امرأته وابنته. ولكن قبل أن ينتهي اليوم الرابع شعرت المرأة وابنتها أن فستوج ليس على ما يرام. فهو يدفع اللحاف عن جسمه ويصرخ ويلعن الجن والشياطين. أسرعت ابنته العوراء سوسن وأخبرت الجيران بحال أبيها. فأتوا ورأوه يلعن الشياطين غاضباً ويقول:

– دوقو الأعمى!...دعني أموت براحة! تنح عن طريق موتي.

ثم يلتفت إلى امرأته العجوز ويقول:

– إنني ذاهب يا بيروس. آمل أن تلحقي بي سريعاً.

صباح اليوم التالي، حينما سمع أهل قريتنا بخبر موت فستوج، تأسفوا عليه وخافوا. تهامسوا فيما بينهم وتساءلوا: موت هكذا بلا سبب وفي غير وقته!!.وحينما انتهوا من دفنه وعادوا، عقدوا مجلس عزاء في بيت المرحوم حسب عادات قريتنا. شربوا الشاي، دخنوا السجائر، وتحدثوا عن صلاح الرجل ومحاسنه.

لا أحد من أهل القرية تحدث عن شروره وكأنهم خافوا الحديث

عن مساوئ الموتى. لم يقولوا إنه كان رجلا شؤما وإنهم كانوا ينأون عنه. لكن بعض أهل قريتنا لم يخف سروره بموت فستوج وفي زوايا القرية تحدثوا بفرح عن موته وقالوا إنهم تخلصوا من رمز من رموز الشؤم ونجوا من بلاء عظيم.

بعد أيام العزاء الثلاثة في منزل فستوج، عمدت زوجته بيروس إلى وضع فراشه كما كان واندست فيه. ظنت النساء اللواتي كن يساعدنها في تقديم الخدمات للمعزين أن أيام العزاء قد أجهدتها واضطرتها للفراش، لكنهن أدركن من ثم أنها تنفذ وصية زوجها وهي أيضاً تتحدث مثله عن دنو أجلها. اجتمعت النسوة وتحلقن حول فراشها ورجونها:

– لا تفعلي ذلك يا بيروس! لقد جلب المرحوم موته إلى باب الدار بمزحة. بمزحة أتيتم بالموت إلى هذا البيت...... عيب يا امرأة!

لكن بيروس لم تخجل من ذلك أو تخف من حديث الموت فأصرت على رأيها وخاطبتهن قائلة:

– قلن ما تشأن قوله.... لكن موعد موتي أيضاً قد اقترب. الشكر لله فقد لبثت في هذه الدنيا سنين كثيرة.

ثم التفتت، فيما هي تتفوه بتلك الكلمات، بعيون دامعة إلى ابنتها سوسن وقالت:

– لكنني خائفة على ابنتي سوسن. إنها عوراء ولم يتقدم لطلب يدها أحد حتى اللحظة. وحتى لو تزوجها أحد بعد الآن فإنها ستستعبد... الاستعباد صعب... أرجو رب العالمين أن يلحقها بنا ولا يدعها تستعبد.

رأت نساء القرية سوسن العوراء ذات الثلاثين عاماً ترتمي على فراش أمها وتبكي وتقول:

– خذي بيدي ودعيني أذهب معك يا أماه! لا تتركيني لوحدي يا أمي..!

أهل القرية الذين سمعوا بالحادثة فيما بعد، ضحكوا، لكن البعض منهم خافوا وقالوا:

– لقد مات زوجها فستوج أيضاً بهذه الطريقة بعد أن لزم الفراش وتحدث عن الموت. وليس من المستغرب أن تلحقه المرأة أيضاً.

ما تفوه به أهل قريتنا تحقق فعلا. فلم يمض أسبوع على بيروس العجوز حتى ماتت وانتشر خبرها في القرية. لذلك لم يعد الناس في قريتنا يستهزئون بأفعال هذه العائلة وأقوالها، بل سرى بينهم رعب يحوم فوق رؤوسهم كظل مشؤوم.

بعد أن انتهى الناس من دفن العجوز بجانب زوجها، عمدت نساء القرية إلى فراش فستوج فأخذنه إلى المسجد لئلا تندس سوسن أيضاً

في ذلك الفراش استعداداً للموت. لكن سوسن وفي اليوم الأول بعد موت أمها، التحفت بشيء ما وانزوت في ركن من أركان البيت، وهي لا تستطيع تذوق طعام أو شراب بل تقول:

- يكفيني ما تناولت في هذه الدنيا من ماء وطعام.

صار أهل القرية يلوكون قصة هذه العائلة وما مرت بها من أحداث درامية. تختلف وجهات نظر كثير من الملالي وطلبة الفقه في الحكم على الأحداث وتفسيرها. يقول البعض:

- هذه العائلة عائلة شيطانية. والشيطان ينطقهم بما يتفوهون به. فما يفعلونه لا يعدو كونه عصياناً..... عصياناً لله.

بينما يرى البعض عكس ذلك ويقولون:

- لا. هذه العائلة عائلة رحمانية وهبها الله لقريتنا. فأفعالهم وأقوالهم مباركة. ومن يعلم بميعاد موته ليس إنساناً عادياً.

ولكن، لتكن تفسيرات أهل قريتنا ما تكون. فقد عشش الموت في ذلك البيت ولم يخرج بسهولة. بل بقي الموت متربصاً حتى رحلت سوسن العوراء أيضاً عن هذه الدنيا. خلال واحد وعشرين يوماً تم حفر ثلاثة قبور جديدة بأيدي أهل القرية ودفن فيها ثلاثة من القرويين!!

لقد انقسم أهل القرية في تفسير حوادث الموت في تلك العائلة. فقسم يرى أنه لا يمكن وجود مثل هذه العائلة الشيطانية في العالم أجمع، وقسم آخر يرى أن العائلة مباركة ومقدسة. حتى أنهم جعلوا من تلك القبور مزارات، وغرسوا شتلات عند شواهدها وعلقوا عليها الخرق والأسمال وأصبحوا يتناولون الطعام لراحة موتاهم هناك.

المنزل:7

أسفل هذا البيت بمقدار مائة خطوة، وبجانب الساقية المتفرعة من النبع، يقع منزل رجل مغرور من قريتنا فخور بنفسه. وغروره هذا يأتي من عمل ولده. وقبل أن يتحدث المرء عن هذا الفخر والاعتداد، عليه القول إن قريتنا أيضاً وفي السنوات الأخيرة تريد الإثبات للعالم أنها أنجبت رجالاً مثقفين وموظفين. ولو أضفنا المعلمين الجديدين هذه السنة، فإنه يصبح عندنا ستة معلمين تنجبهم هذه القرية. كما أن أحد أبناء قريتنا موظف في بريد المدينة. بل إن قريتنا لم تنس نصيبها من الجانب العسكري فقد أنجبت عسكريين ذوي شأن، ضابطا في القوات الجوية وآخر في البحرية.

لكن وأسفاه! فبعد أن يظهر من القرية مثل هؤلاء الرجال المهمين

يختفون ولا أحد يراهم بعد ذلك.

ومثل ثمرة بلوط تخرج من غلافها ولا تعود تعترف بذلك الغلاف، فإن هذه الشخصيات أيضاً تخرج ولا تعود ولا يتنازل أحدها للاعتراف بأهل القرية أو العيش بينهم. وإن رأوا أحداً من أهل القرية في المدينة لما سلموا عليه.

ضابط البحرية وحده يأتي أحياناً إلى القرية، فيتنازع الأهلون في أمره. يقول بعضهم ألا أحد يستطيع أن يغلب هذا الضابط، فيرد آخرون بالقول بل يمكن حتى أن يكسر رأسه أيضاً.

لقد قيل ذلك في أحد الشجارات عند ساقية البصل. فخلال انتظار دور السقاية تشاجر أحد القرويين مع عائلة ضابط البحرية. وسرعان ما انضم الضابط بلباسه العسكري إلى الشجار.

اتضح أن القروي خاف من اللباس الحكومي، لكنه مع ذلك خاطب الضابط في البداية قائلاً:

- على أساس أنك ضابط بحرية. ألا تخجل من لباسك الرسمي هذا!

لكن الضابط هدد القروي بلا ذرة حياء أنه سيقتلع عينيه.

أسرعت زوجة القروي لتقف بجانب زوجها وتؤازره وصرخت

بصوت حاد:

– من يدخل إلى مخازن التبن بهندام الحكومة، لا يخجل من شجارات ساقية البصل أيضاً! والداه أيضا يقولان: لقد خلفنا ولدا، يا حسافة!

منذ ذلك اليوم اشتهرت قصة ضابط البحرية وحادثة مخازن التبن، حيث كان يسرق البيض الذي يرقد عليه الدجاج، وتلقفتها الأفواه وروتها كثيراً. لكن مع ذلك فلا حدَّ لافتخار والد الضابط بولده.

## المنزل: 8

في الجهة السفلى من القرية، وإلى الشرق منها يقع منزل عجيب. ولكي لا يفهم أحد كلمة عجيب خطأً يجب القول إنه ليس البيت بل أهله هم العجيبون.

ومختصر الكلام أن رب البيت رجل في الرابعة والأربعين من العمر ممشوق القامة وذو لحية حمراء. ويناديه أهل قريتنا بلقب ريسور.

وابن قريتنا ريسور أب لستة أطفال. لكنه هو نفسه لا يقول ذلك، بل يقول حرفيا إنه أب لستة أضلع عوجاء. فلم يولد له غير الإناث. يقال إنه كان يصلي ويدعو الله كثيراً كلما أوشكت زوجته على

الولادة ويطلبَ من الله أن يرزقه ذكراً.

لكن يبدو أن الله لم يستجب لدعائه وأن صلواته لم تجد نفعاً. فقد حملت زوجته كل مرة بأنثى وأنجبت له بنات جميلات. وفي كل مرة كان يمسد لحيته الحمراء ويقول:

- إن الله يعاندني!

وإلى الآن ما يزال يحلم بولد ذكر، وقد كبرت بناته وبلغت الكبرى حوالي الأربعة والعشرين عاماً والباقيات يصغرنها عاماً فعاماً. (إن لم يكن ثمة عذر أو عيب في الفتاة، فإن فتيات قريتنا لا يبقين عزباوات حتى ذلك العمر). وكل بنت من بناته أجمل من الأخرى. قاماتهن مديدة، شعرهن أحمر، عيونهن لوزية. ومع جمالهن الفائق ورقتهن فإنهن كن يساعدن والدهن في كل شيء. حتى أنهن كن ينخرطن في عمل الرجال.

لكن كل نشاطهن لم يطفئ شوق والدهن إلى إنجاب ذكر. في كثير من الأحيان أتى من يطرق باب ريسور ويطلب يد بنت من بناته. لكنه رفض كل الخاطبين رفضا قاطعا وكأنه اتخذ قراره بالرفض منذ الأزل ولا يمكنه الرجوع عنه أبداً، سواء من كان الراغب في الزواج من بناته.

وهذا التصرف من ريسور هو ما أدخل الرعب في قلوب بناته

اللواتي كن يتحدثن في أمسياتهن عن الحب وقصصه، يتكلمن عن الزواج ورغباتهن، يبحن بأسماء عشاقهن. وحينما وجدن أن والدهن جاد في قراره برفض أي طالب زواج، لجأن إلى أمهن رقيقة القلب وشاورنها وطلبن مساعدتها. أشفقت الأم الرؤوم على بناتها فعمدت إلى نصح زوجها ليلاً نهاراً وحاولت إقناعه بالرجوع عن قراره لكنه كان يأبى ذلك ويقول: «لا يمكن أن أزوج بناتي».

فقدت البنات كل أمل، تناقشن طويلاً، وحدن كلمتهن واتفقن على رأي. وفي أحد أيام بداية الربيع لم تعد البنت الكبرى إلى البيت بعد انقضاء وقت جني الأعشاب.

غضب ريسور واحتد، عنف بناته الباقيات وصب جام غضبه عليهن. حاولت زوجته تهدئته ورجته أن يصبر على غياب البنت، فحدوث أمر كهذا ليس غريباً لأن الفتاة على أبواب الزواج وربما كانت تعبر بهذا عن رغبتها في زواج شرعي بدل السير في طريق الضلال. لكن ريسور تشاجر مع زوجته وقال لها: «ألم أقل ذلك؟... ألم أقل لك إن عبارة،، المرأة ضلع أعوج ووصمة عار على جبين والديها «تنطبق على عائلتنا؟»

حاول ريسور معرفة من هو الذي خطف ابنته ليلحق بها. وإلى أن تعرف على المكان الذي هربت إليه الفتاة الكبرى، هربت واحدة

أخرى. هذه الحادثة، حادثة هروب البنت الثانية لم تدعه لمزيد من الغضب بقدر ما سببت له حرجاً أكبر. أتى أهل القرية إلى بيته، حاولوا الإصلاح فيما بينه وبين خاطف البنت. لكن ريسور لم يقبل الصلح وقال: «لا أقبل بتصفية الأمر، كما أنني لن أتبعهم. فليرافقهم الشيطان!»

بعد يومين، أخذ الشيطان بيد ابنتين أخريين فغابتا عن الأنظار. لم يغضب ريسور كما كان يغضب ويثور في المرات السابقة، لكنه خجل، خجل كثيراً. فلم يعد يخرج إلى الناس ولا يحضر صلاة الجمعة، بل ظل حبيس المنزل يديم الفكر ويقول لنفسه أحياناً: «على الأقل يجب أن أزوج ابنتي الباقيتين. سأعمل لهما حفل زواج كبيراً فربما غسلت العار الذي لحق بعائلتنا».

لكن حلم ريسور لم يتحقق. إذ هربت الأختان الصغيرتان أيضاً من البيت خلال أسبوع وكأنهما تلقنتا الدروس من أخواتهن الأكبر. غبن عن الأنظار ولم يبق لهن أثر.

بعد هروب بناته الست، أصبح ريسور يفكر أحياناً أن يحمل بندقيته ويلاحق أزواج بناته عديمي الناموس، لكنه يتراجع عن هذا القرار ويقول لنفسه: «المرأة ليست ذلك الشيء الذي قد يدعو حتى لقتل رجال عديمي الناموس».

انعزل ريسور وكأنه تعود على ذلك، امتنع عن الخروج وتجنب الاختلاط بأهل القرية قدر الإمكان. لا يأتي على ذكر بناته. لكنه اكتسب عادة غريبة. فما إن يبقى لوحده في غرفته، حتى ينتف لحيته الحمراء ويضرب رأسه بالحائط.

**المنزل: 9**

حينما يسير المرء بمحاذاة المنزل السابق مقدار أربعة أمراس، وعلى الجهة اليسرى خارج القرية (أهل القرية يقولون: الحمد لله أنه خارج القرية) يلمح باباً مسود اللون مصنوعاً من الخشب. هذا هو باب بيت كَنْدو. وما إن يفتح هذا الباب، حتى تفوح رائحة غريبة تزكم الأنوف كأنها رائحة مخبر نتن. وبكلام آخر، فإن روائح المخلل والزقاق والجلود المملحة والوبر المحترق، والقرون والعظام المحترقة وأحشاء الحيوان تختلط بعضها مع بعض وتشكل رائحة ما عليك عزيزي القارئ إلا أن تتخيل كم ستكون كريهة!

أهل قريتنا على علم بهذه الرائحة. يعرفون أن لا رائحة تضاهي هذه الرائحة في النتن. يعني أنه لو ركب قروي معصوب العينين من قريتنا حصاناً ودار الدنيا كلها ثم وقف الحصان على باب كَنْدو، لعرف من الرائحة أنه باب بيت كندو.

وسط هذه الرائحة ينتصب دائما قِدر في إيوان البيت فوق موقد نار، حيث يغلي فيه شيء ما. وبدون شك فإنك سترى تُوسِك، زوجة كندو، تحمل في يدها مغرفة خشبية وتحرك ما في ذلك القدر. وإذا كان الطعام الموجود في القدر هو ما يشتهيه شَبال، كلب العائلة، فإنه يأتي ويفترش مكانه بالقرب من الموقد، يمدد قائمتيه الأماميتين ويضع رأسه فوقهما ويراقب. ومع كل صوت تصدره المغرفة الخشبية وهي تتحرك في القدر، تنتصب أذنا الكلب أيضاً ويرفع رأسه ويمد أنفه يتشمم رائحة الطعام راغباً في تذوقه قبل ربة البيت.

في تلك اللحظة بالذات ترفع المرأة مغرفتها وتهوي بها على رأس الكلب. شَبال المسكين يخفض رأسه كما لو أنه ارتكب جرماً ويعود لحالته الأولى مراقباً الطعام. تنق توسك وتتمتم وتخاطب الكلب وكأنه طفل صغير يشتهي الأكل: «انوين نك. نقد نوثت بغرفتي. أنا تستطيع الصبر قنيناً».

عندما يريد أحد القرويين أن يبدي سخطه من كلام ابنته أو زوجته فإنه يقول لها: «كلامك مثل كلام ذات الخشم المسدود توسِك».

هذه حال توسك على مدار العام كله. أنفها مسدود دائماً وتقلب اللام نونا والميم باءا.

المنزل: 10

خلف المسجد، في وسط المنازل، يقع منزل وجيه القرية. هكذا يوصف مع أنه لم يعد وجيها. ففي السابق كان أهل قريتنا يبجلون أهل هذا البيت ويحترمونهم. كانت لهذه العائلة أراض وقطعان غنم وكروم.

ومادام الكلام يجر الكلام فعلى المرء أن يقول إن أهل قريتنا يكررون هذا الكلام: «في نهاية الأمر يصاب الرجل في قريتنا بالجنون. ذو التقوى والصلاح ينقلب في عاقبة الأمر إلى عاص متمرد على الله. الغني يناله الفقر...»

فلتبق صحة هذا القول أوخطأه سراً في قريتنا، لكن ما لا يخفى أن وجاهة تلك العائلة الكبيرة قد اضمحلت. ولكل فرد من أفرادها طبيعة خاصة. إنهم بائسون سيئو الحال وفقراء. وكم يؤلمهم أنهم كانوا ذات يوم وجهاء القرية وأكابرها. ولو كان بإمكانهم لخرجوا صغاراً وكباراً من هذه الورطة البائسة بين ليلة وضحاها، لكنهم لا يقدرون على ذلك. إن صفة الوجاهة قد التصقت بهم مثل براز يابس ولم يعد بإمكانهم التخلص منها بسهولة. ومع ذلك فإن أهل القرية يستمرون في التواضع ولا يخاطبون هذه العائلة أو يتحدثون عنها أو يتعاملون معها إلا بصفة الوجاهة.

حينما يأتي ضيف إلى قريتنا فإنه يسأل أول الأمر عن بيوت الأكابر

والوجهاء. ولا ضير أبداً أن يطلب المرء في قريتنا طعاماً أو شراباً لدى عائلة كبيرة القدر. وكثيرا ما يتوجه قرويونا لهذه العائلة ويطلبون منهم إطعامهم.

وحينما يحل أحدهم ضيفاً على هذه العائلة، فإن رب العائلة يرتبك وتأخذه الحيرة إذ لا يجد شيئاً في منزله، فيضطر لطلب المعونة ويستدين من أهل القرية، بيضاً وحطباً وسمناً وخضروات لكي يقوم كوجيه بواجبه تجاه الضيف الطارئ.

لكن بعد أن يغادر الضيف منزله، تقوم القيامة في بيت الوجيه. يا ويلي عليه.. لو رأيتم ماذا يفعل!! إنه يزمجر ويرغي ويزبد ويبحث عن أبسط حجة ليتشاجر مع زوجته ويصب جام غضبه على أولاده.

وأهل قريتنا يعرفون طبعه هذا. وخاصة عندما يرونه عاقد الحاجبين مقطب الجبين يعرف الناس ماذا حصل له. على الفور يدرك القرويون أن ضيفاً قد طرق بابه ذلك اليوم أو ليلة البارحة.

تخيلوا أن رجلاً بعد أن عاش حياة العز والجاه وكان كبير قومه، يتسول على باب راع أو خادم من خدم أبيه كيس ذرة أو زق لبن!! وما أصعب أن يكون رد ذلك الراعي أو ذلك الخادم: «حسناً أيها الأمير.

أستطيع أن أعطيك، لكن متى بإمكانك أن ترد لي ما اقترضته؟»

كان الله في عونهم!.... وكالعادة يجد وضع هذه العائلة تفسيرات كثيرة في قريتنا. فبعض الأهالي يقولون: هذا هو بالضبط ما يناسبهم، فالله يسقط الثلج حسب علو الجبل. ويقول البعض: هذا بسبب دعوات سيئي الطوية من أهل قريتنا. بينما يقول آخرون: ما جرى لهم هو بسبب صغر عقلهم.

المنزل: 11

خلف منزل وجيه القرية السابق، يقع منزل أحد خدمه السابقين. لكن صفة الخادم، كما سلف القول مع الوجيه، باتت صفة قديمة لا مفعول لها الآن. إنه رجل عذب الحديث طلق المحيا ومتواضع. وضعه ليس سيئاً كما كان في السابق. بل يعتبر اليوم من أغنياء الطبقة الثانية في القرية. وكما يقال: من شب على شيء شاب عليه، فإنه ما يزال إلى الآن يخاف الفقر وضياع ما في يده. وأحياناً تنتابه حالات بخل شديد رغماً عن إرادته ويصبح في قريتنا كبقعة سوداء.

ومع أن البخل صفة عامة في القرية، لكن.... لكن بالرغم من ذلك فحينما يأتي النَّوَر إلى قريتنا يستقبلهم القرويون ويمدون لهم يد العون. وإذا طرق متسول باب أحدهم فلا يمكن رده خائباً أبداً.

لكن هذه العائلة ليست كذلك. فحينما يأتيهم النَّوَر يوشك أطفالها

أن يقوموا بسلبهم. كما أنهم لا يوزعون الطعام لراحة موتاهم ليالي الجمعة. وعندما تذهب زوجة راعي بقر القرية لتأخذ زوادته له، يقولون: قرصا كبة كثير وقرص واحد قليل! لذلك يقطعون كبة إلى قسمين ويرسلون لراعي البقر قطعة ونصف.

**المنزل: 12**

في الحي السفلي من قريتنا يقع منزل، يقول عنه أهل القرية منزل مَديك. ويعلم الله أن الناس في قريتنا ينسبون المنزل إلى ربة البيت فقط. وليس ذلك لأنه لا رجال في هذا البيت، لا، ففيه ما يدعى بالرجال.

ثمة رجل في هذا المنزل اسمه ريجو، طويل القامة هزيلها، صغير الأنف أحمره. وحينما يتحدث، يصدر عنه صوت رفيع، صوت يخرج من أنفه وحنجرته في نفس الوقت ويشبه صوت امرأة أصابتها نزلة برد. وهو يخجل كثيراً من هذا الصوت فلا يتحدث في مجالس الرجال إلا مضطرا.

يقول أهل القرية، وخاصة الرجال: «ابن قريتنا ريجو لا ينبس ببنت شفة».

لكن هذا ليس بصحيح. فلو انتبه المرء لحديثه مع امرأة لقال إن أكثر نساء الأرض طول لسان لا تستطيع بلوغ كعب قروينا ريجو في الثرثرة. سيقول: إن الله تعالى كاد أن يخلق ريجو امرأة ثم خلقه في اللحظة الأخيرة ذكراً. بكلام آخر، فإنه لولا الشوارب وشعر اللحية التي يهبها الله للمرء علامة على الذكورة لما اعتبر ريجو رجلاً. ريجو الذي تزوج منذ سبعة أعوام ولم يرزق بولد.

حديث كحديث النساء، طبائع كطبائع النساء، ضحك ومزاح على طريقة النساء، تصرفات كتصرفات النساء...... من حق القارئ أن يسأل: وكيف هي هذه الطبائع النسائية؟

فلنبدأ أولاً من العمل. ريجو يذهب لجمع الروث، يصنع جلل الروث بيديه، يحمل على ظهره حزم القش، يذهب لجمع الأعشاب، يذهب إلى البئر ويستسقي من النبع ويحمل الماء في سطلين. ومثل كل امرأة فضولية يقف في درب النبع ويتحدث إلى النساء واضعاً إحدى يديه على الأخرى تماماً كما تفعل النساء. يضحك بصوت رقيق ويضع إحدى يديه خلال الضحك على فمه. وإذا كان موضوع الحديث أو سبب الضحك غريباً نوعاً ما، (وكل شيء غريب على عقل ريجو) فإنه يرفع حاجبيه للأعلى ويقول بصوته الرقيق: «يا ويلي! عشنا وشفنا».

هذه الجملة أعلاه، صارت عادة لدى ريجو، بل صارت شعاراً له، يستعمله في مكانه وزمانه وفي غير مكانه وغير زمانه أيضاً. ويستعمله بشكل خاص حينما ينضم إلى أحاديث نساء القرية. فإذا أخبرته امرأة من نساء الحي مثلاً أن البطم قد أينع، رفع حاجبيه إلى أعلى وتفوه بشعاره المعتاد ذاك. حتى أن بعضاً من أهل القرية صاروا يرددون كلماته هذه.

وبدلاً من أن يضفي القرويون لقب «طنط» على ريجو ، فإنهم يعرّفون منزله وبيته باسم زوجته فيقولون: منزل أو بيت مديك.

**المنزل: 13**

مقابل منزل مديك، يقع منزل آخر. منزل ليس له في العير ولا في النفير. منزل مبني بحجارة دون طين. ذو ألوان عجيبة.

ربة هذا البيت أرمل تنحدر من البيوتات العريقة. وليكن أصلها ما يكون، وحتى لو كانت من بيت الله فإن المرأة في قريتنا ليس سوى امرأة. والمثل الذي يقول إن الأسد أسد ذكراً كان أم أنثى، مثل لا موقع له من الإعراب في قريتنا. وبعبارة أخرى ففي قريتنا: الأسد أسد، والمرأة امرأة والرجل رجل.

ولو عدنا إلى ربة البيت، فسنراها قد أنجبت أحد عشر ولداً. لقد أنجبت من كل حمل شيئاً مختلفاً عن سابقه ولاحقه: تقاة ورعين، أشراراً، صعاليك ومهرجين أيضاً.

نعم نعم مهرجين بلا أي تسمية أخرى. ولو لم يكن ذلك صحيحاً، أكان في الإمكان وهذا خلال الصلاة..... أمهم كانت تصلي، متجهة إلى الكعبة وتركع... جاء أحد أولادها ورفع فستان أمه من الخلف وأسنده على عصا فلم يعد بإمكان الأم المتحدرة من البيوتات العريقة أن تتحرك لا ركوعاً ولا استقامة.

وبسبب تصرفات أفراد هذه العائلة فإن أهل قريتنا يطلقون عليهم اسم بيت كوليلْك.

وبيت كوليلك في قاموس أهل القرية يحمل كثيراً من المعاني. فالبعض يسعى من ورائه للقول أن العائلة متلونة كالأزهار، والآخر يود القول إن أفرادها من آباء متنوعين. والله أعلم.

الخلاصة أنه بإمكان المرء أن يقول عن هذه العائلة بأنها عائلة مفككة. لا أحد من أفرادها يثق بالآخر، لا أحد على علم بالآخر. كل واحد منهم له وجهة خاصة تختلف عن الآخرين، ولهذا فهم لا يتفقون على شيء أبدا.

## المنزل: 14

في الحي العلوي، إلى الشرق من مضافة قريتنا، وعلى بعد بضعة أمراس من المضافة، يقع أسفل المدرسة منزل قديم. ولكن لو تمعن فيه المرء لوجد أن هذا المنزل القديم قد عاش كل التبدلات التي جاءت بها نهاية القرن العشرين إلى الدنيا. بل لظن أن كل تلك التبدلات قد حصلت من أجل هذا المنزل لوحده أو أنها أثرت فقط عليه. ولذلك فقد أطلقت عليه صفة صالون الحلاقة. يقول أهل قريتنا إن صاحب الدار أطلق على بيته تلك الصفة حتى لا يناله الحرج من قبض المال.

من ذا الذي كان يظن أن ينشأ في قريتنا أيضاً صالون حلاقة بالأجرة! إلى خمس سنوات مضت، كان الذين بمقدورهم استعمال المشط والمقص، يجلسون في ظلال الجدران ويقصون شعر أهل القرية مجاناً وبدون تذمر وكأنهم يقومون بواجب من واجباتهم. حتى أن الرجل الذي يطلق على نفسه اليوم اسم الحلاق، كان يحلق للناس في بيته.

وحينما كان الناس يذهبون إليه في بيته، كان يستقبلهم باحترام وحسب العادات القديمة يرحب بهم ويصنع لهم الشاي. يصلح لهم شعرهم ويحلق لحاهم دون أن يتحدث عن النقود أصلاً.

لكن كما قلت سابقاً، يبدو أن التغيرات التي حصلت في العالم قد

نقلت عدواها إلى قريتنا أيضاً. فصار لكل شيء ثمنه، حتى أن من لا يجيد الحلاقة صار يتقاضى أجرته مثل أي حلاق محترف في المدينة.

**المنزل**: 15

أعلى الحي الفوقاني يوجد منزل آخر من طابقين كالكثير من منازل قريتنا. وهذا المنزل هو آخر منزل في القرية إذ لا منازل بعده سوى مبنى المدرسة.

هذا هو منزل ناطور القرية. لكنني إلى الآن لا أعلم ما الذي يفعله هذا الناطور وما هي وظيفته الفعلية.

الذي أعلمه هو أنه بعد أن يصعد إمام القرية في أيام الجمعة إلى سطح المسجد يرفع الأذان ثم ينزل، يصعد الناطور مكانه ويجعجع مخاطبا أهل القرية:

-أيها الناس، كل من يطلق العجول في الحواكير، وكل من يطلق الخيول في المروج، سأ.......

ويصيح بصوت عال جداً، يقول كل ما يخطر على باله من سباب لا يمكن قولها ولا كتابتها... إنه لا يترك أماً ولا أختاً ولا زوجة دون أن يسبها.

المنزل: 16

في زاوية من زوايا شمال القرية يوجد منزل.... لا هذا ليس منزلاً.... ليس منزلاً، ولا خيمة، ولا كهفاً..... إنها أعجوبة من الأعاجيب. بيت لا ينتمي لا لأهل السماء ولا للجن والعفاريت.... أفراد هذا المنزل يشدون الأحزمة على خصورهم، يضغطون على بطونهم كي تضمر.... ولكي لا يشعروا بالجوع فإنهم لا يخرجون إلى بيت الأدب.

هذا هو الخريف الرابع الذي يقضيه المدرس وزوجته في هذه القرية ومع هؤلاء الناس. ولقد بذل خلال السنوات الثلاث المنصرمة كل ما بوسعه، في سبيل أن يعين القرويين، ويصلح من حالهم، ويصبح قدوة لهم في أقواله وأفعاله.

ولكن ما تفعله الطبيعة من تبدلات في الأشجار، في الخيول، وفي البشر، فعلته في المدرس أيضا وغيرت طباعه وكذلك طباع زوجته. وباختصار فقد زالت تلك الطبيعة الطفولية عن نرجس. وجهها المدور يشهد على تقلبات الزمن وتصبح نرجس عروساً أحلى. يمتلئ جسمها وتبدو امرأة ناضجة.

بضحكاتها، بمزاحها، بحديثها العذب وعشرتها الطيبة، بثرثراتها وطول لسانها ولطافتها وخفة روحها تبدو نرجس امرأة تحمل طبائع نساء هذه القرية. ولولا جمالها البدوي لما عرف المرء أنها زوجة معلم مدرسة.

فقط أمر واحد، أمر شؤم واحد غالباً ما يصادف النساء، عكر على نرجس صفو الحياة لمدة ثلاث سنوات في هذه القرية. الحياة الزوجية والإقامة في هذه القرية كانتا بمثابة بلسم لجراحها لولا ذلك الأمر الشؤم.

ولكن، وكما يقال، تباً للحياة فهي مرة وردة ومرة شوكة،

فحتى قبل سبعة أشهر لم ترزق نرجس بولد. كان هذا الأمر يشكل مثلبة للمدرس وعاراً لنرجس. ولكن وكما يقال فإن بعد كل عسر يسراً..

كانت نرجس تصنع في الأيام المباركة طعاماً بمساعدة نساء القرية، تذهب وتوزعه في مزار «مالا دينان» على الأولاد الحفاة واليتامى، تتمدد على الضريح وترفع يديها بالدعاء وتنادي جميع الأرواح المقدسة، تتضرع وتبتهل إليها أن ترفع عنها هذا العار. والآن، وبحمد الله، فإنها حامل في شهرها السابع.

أما التبدلات التي عملتها الطبيعة في المدرس خلال هذه الأعوام الثلاثة فهي أغنى، وأسمى وأكثر غرابة! ففي الفترة الأخيرة تظهر عليه طبيعة غريبة. فما إن يرى عصفوراً في مكان ما، حتى يلتفت نحوه ويتابعه وحينما يمر تحت شجرة أو بجانبها يمد رقبته عفواً ويراقب الأغصان والأوراق. وكمن اعتاد الحياة القروية وباتت القرية حاضنة دافئة له، فإنه بعد مدة من إقامته باع سيارته العتيقة التي كانت همزة الوصل بينه وبين المدينة ونسيها ونسي معارفه القليلين في المدينة أيضاً. بل وصار يمتعض من الذهاب إلى المدينة ولو في سبيل تسيير شؤون المدرسة. إنه يحبر كل بضعة أسابيع ورقة يذكر فيها مستلزمات المدرسة ويرسلها إما مع المختار أو مع قروي

نبيه إلى الدائرة المسؤولة. وحين يضطر إلى الذهاب للمدينة وتطأ قدماه شوارعها، يمشي كمن نسي السير في تلك الطرقات ويبدو مثل قروي مستوحش فينظر باستمرار أمامه وخلفه. وفي السوق يتصرف كالقرويين فيساوم ويعاند ويشاجر أصحاب الحوانيت، وحين يرتاد أحد المقاهي فإنه يزعج الناس بصوت رشفاته من كأس الشاي. بعد مدة يتأكد المدرس أنه لن يجد في المدينة اللذة التي يحياها في القرية. لذلك لا يخطر على باله مطلقاً الذهاب إلى دار سينما أو صالة مسرح. أحياناً كثيرة تضيق عليه زوايا المدينة ويوشك على الاختناق، بل إنه وعقب كل زيارة إليها يبدو كالسمكة الخارجة من الماء.

في هذه السنوات الثلاث يأمر التلاميذ بحراثة جزء من باحة المدرسة تحت شعار درس الإرشاد الزراعي، ويزرع فيها فسائل الطماطم والفليفلة. كما يأمر الأقوياء بينهم ببناء اصطبل في زاوية من زوايا المدرسة، وفي طرف آخر قن دجاج كبيراً.... ومثل العديد من أهل القرية يمتلك المدرس أيضاً بقرتين، وخمسة أغنام وحوالي ستين دجاجة، ويعلم الله أن كثيراً من أهل القرية لا يملكون هذه الأعداد من الحيوانات.

وحينما يتقاسم القرويون محصول الحطب على الجبل المطل على

القرية، فإن لبيت المدرس نصيبه في الحطب تماماً كأي بيت من بيوت القرية. فهو غدا أحد أهاليها ولا يختلف عنهم بشيء، سوى أنه يحلق لحيته الحمراء أيام الجمعة، ويذهب في الأيام المباركة إلى المسجد لا لوجه الله بل من أجل القرويين ويركع ويسجد مثلهم. يزيح الذباب الميت الطافي على اللبن الحامض ثم يكرعه بالمغارف نصف المحترقة، يتحدث إلى القرويين، يضاحكهم، يشاركهم اللعب، وكثيراً ما يتشاجر معهم ثم يعود ويتصالح، يشارك في تشييع الجنازات وطلب أيدي الفتيات، يقلل من زياراته إلى مضافة القرية كدأب كثير من القرويين ويرى أن من الأفضل إقامة العلاقات الاجتماعية ضمن المنازل، يصنع لنفسه معسكر أصدقاء ومعسكر أعداء ككل القرويين، يعرف أكثر من أي قروي كم من الجبهات توجد في القرية، من يعادي من، ويعرف عدد أفراد كل بيت وما هي أخلاق كل فرد معرفة جيدة.

لكن وبالرغم من كل ذلك تبقى لدى هؤلاء القرويين جوانب غامضة مخفية لا يمكن للمدرس الاطلاع عليها ومعرفة كنهها، وربما لا يعرف القرويون ذاتهم أن لديهم مثل تلك الجوانب الخفية. هذه هي وتيرة حياة المدرس الجديدة في القرية.

مع حلول المساء وقبيل انصراف التلاميذ من المدرسة، يخرج المدرس كعادته دائماً دفترا صغيراً من جيب بنطلونه الخلفي، يتمعن فيه ويقول:

– اليوم دور..... دور كوركه وبوده في تنظيف الصف. دمو وميرو يأخذان الأبقار والعجول إلى الحظيرة. زورو ودلشا يعلفان الدجاج ثم يدفعانه إلى القن.

بعد ذلك، ومثل قائد ينتخب من جيشه بضعة جنود شجعان، ينادي المدرس تلميذيه مم وبشير، يتكلم إليهما همساً ثم يعود إلى مخاطبة التلاميذ وكأنه يبدأ الآن حياة جديدة:

– حسناً. هيا اخرجوا الآن وانصرفوا بدون ضجة.

يخرج التلاميذ جميعاً صامتين سوى كوركه وبوده. يتجه دمو وميرو إلى القطيع. مم وبشير يتجهان إلى وادي الجن ويخرجان من القرية. زورو ودلشا يتجهان إلى البيت لإحضار علف الدجاج. يذهب كل تلميذ إلى المكان الذي أمر بالذهاب إليه لتأدية واجبه كالجنود بينما ينزل المدرس إلى باحة المدرسة ويدخل بين حواكير الخضار ويبدأ الصفير.

تخرج نرجس من مبنى المدرسة متجهة إلى الحواكير وهي تضع يديها على بطنها. تقول لزوجها بغنج ودلال من ستصبح أماً إنها

ستذهب إلى بيت خانِهْ. ينظر المدرس إلى زوجته بسعادة من سيصبح أباً، ويقول:

– حسناً، وأنا سأذهب إلى بيت شرو.

ثم يواصل السير بين الحواكير وهو يصفر.

تصل دلشا إلى البيت وتتجه إلى المخزن. أكياس الذرة عالية، فتذهب محاولاتها في الارتقاء عليها لتأخذ قليلاً من الذرة عبثاً. تفكر كما يمكن لطفل أن يفكر، وتهتدي إلى أن تسحب رقعة القماش المخاطة إلى فوهة كيس الذرة وما إن تسحب رقعة القماش حتى تتدفق الذرة شلالاً.

تحاول عدة مرات أن تعيد الوضع إلى ما كان عليه فلا تفلح. يرتفع في المخزن كثيب من الذرة وتنظر دلشا بعينين خائفتين وروح من يشعر بالذنب إلى ذلك الكثيب. وإذ تسمع دبيب أقدام، تلتفت وراءها وتنظر إلى الباب الخارجي. ومع خفقان قلبها المتسارع تدخل أمها إلى المخزن.

وما إن ترى كومة الذرة حتى تضع سطلي الماء من يدها دون أن تتفوه بكلمة وتسرع إلى تلك المذنبة الصغيرة، تمسك بناصيتها وتضربها بلا رحمة وهي تصرخ فيها محتدة:

– ما هذا الذي فعلت؟ ما هذه الرذالة يا شقية؟ جاء البائع المتجول

مرة أخرى أليس كذلك؟ لا أسعدك الله.

تصرخ الفتاة المسكينة وتستغيث، تبكي بين يدي أمها وتقول:

– أمان يا أمي. الله يخليك يا ماما. مرة أخرى.... آي.... يا أمي والله لن أفعل ذلك مرة أخرى. آخ يا رأسي.... دخيلك يا ماما.... الدور دوري.... لذلك يا أمي....

الأم العنيدة قاسية القلب تخفف من وتيرة الضرب حينما تسمع خلال بكاء ابنتها المؤلم أنها تتحدث عن دور ما. تكف يدها عن الضرب لكنها مع ذلك تقول بحدة وغضب:

– دور!! أي دور يا كلبة؟

شعر المسكينة يبدو مثل كومة قش في يد أمها. تطأطئ رأسها وتنظر بعينين بريئتين مبللتين بالدمع وخائفتين إلى قدمي أمها وتقول:

– إنه دوري في إطعام دجاجات معلم المدرسة يا أمي.

مع سماع هذه الجملة تخفض الأم يديها، يعتريها ندم بالغ وتبدو كأنها تقول لنفسها: فلتنكسر يداي. ثم تقول لابنتها:

– لماذا لا تقولين ذلك لأمك يا ابنتي؟ لماذا لا تقولين إنه دورك؟ يا الله، هاك كفاية من الذرة؟ هيا خذيها واذهبي بسرعة!

تقوم دلشا بقلبها المنقبض وبقايا النشيج، تفتح ذيل ثوبها وبعد

أن تملأه الأم بثلاث حفنات من الذرة تشد ثوبها وتركض مسرعة باتجاه المدرسة.

إحدى يدي نرجس على بطنها واليد الأخرى طليقة تهتز إلى الخلف والأمام. إنها تتجه إلى القرية وبالقرب من باب بيت خانه تشم رائحة سويق مطبوخ بالمخيض. تلمحها خانه من فوق الجدار، تترك مكانها عند قدر السويق في الباحة الكبيرة وتتجه مبتسمة إلى باب الدار وهي تقول:

- هيا تعالي يا نرجس، تعالي.

- نعم يا عمة، كنت آتي إليك.

بابتسامات متبادلة وكلمات الترحيب تجتمع خانه ونرجس في وسط الدار. تبدو خانه وكأن لديها خبراً تريد قوله. تترك القدر وتذهب لتحضر البصل والخبز والملاعق والصحون ثم تعود لتحرك بالمغرفة ما في القدر.

تملأ صحناً بالسويق المطبوخ وتضعه جانبا ثم تقول:

- هكذا.. ليبرد قليلاً قبل أن تأكليه يا روحي.

ثم تواصل الكلام مبتسمة:

- والله كنت في بالي. أقسم بمزار مالا دينان كنت أفكر فيك

وأقول ليت نرجستي كانت هنا الآن لتتذوق من هذا السويق. يا حسرتي.

تجلس نرجس في الفناء بقرب قدر السويق. تبتسم خانه كما هو دأبها دائماً بوجه مشرق. فجأة تنتابها موجة ضحك لا معنى له وتقول:

– نعم يا حسرتي. فأنت الآن تتوحمين أيضاً. سأبعث الآن ولداً إلى الكرم العالي.

تضع نرجس يدها على كتف خانه وتطبطب عليه ثم تقول:

– لا وحياة رأسي ورأسك يا عمة. لا حاجة لذلك.

وتتجه إلى ظل الجدار المقابل. تخجل من كلمة الوحام وتطرق برأسها لتواصل كلامها بخفوت:

– أكيد سمع الخال صائب أيضاً يا عمة و.....

تبتسم خانه فيما تنظر بحنان نحو الجدار حيث تتفيأ نرجس وتقول:

– دعيه فهو مشغول بوضوئه ناهيك عن ثقل سمعه. إنك تتوحمين الآن والله... كل امرأة حامل..... صحيح هل بقي الكثير أم؟...

تنحني نرجس بخجل وتنظر إلى بطنها المتكور وتقول بصوت

خفيض:

- والله لست أدري إن.... أظن أنه بقي للولادة شهران وعدة أيام.

تمد ملعقة سويق إلى فمها، تعتدل فجأة وتقول كمن يفشي سراً:

- نعم يا عمة.. لقد تحدثت عن الوحام... أتعرفين ماذا جرى لي أنا المسكينة، ليلة البارحة؟

خانه المبتسمة على الدوام، تتخذ سحنة جدية، تسحب كوفيتها إلى الخلف قليلاً، تمد رقبتها نحو نرجس وتقول بهدوء:

- لماذا؟ ماذا جرى؟

- يا ويليييي يا عمة!

أظن أنني لن أنسى حادثة ليلة البارحة طوال حياتي.

ترتسم في البداية ملامح دهشة صغيرة على وجه خانه من كلام نرجس، لكنها سرعان ما تنخرط في ضحك لا مبرر له وتقول:

- هيا قولي يا مقصوفة العمر! ماذا جرى لك؟ هل استحلمت؟ ههههه. هيا قولي. انطقي.

تبلع نرجس ريقها بضع مرات، ترمق بطرف عينها صائب المشغول بالوضوء وتسرد ما جرى لها بتلعثم لا يكاد يسمع:

– ماذا أقول يا عمة! ليلة البارحة. منتصف ليلة البارحة، تقلبت في الفراش ذات اليمين وذات الشمال عبثاً. لم أهدأ في الفراش بالرغم من كل ما حاولته. استقر المغص في جنبي ومنع النوم عن أجفاني. قمت وجلست خلف ظهر الأستاذ. بقيت جالسة لفترة لكن سهام المغص اللعين لم تتركني. كنت أعرف أنه لا يوجد مسكن آلام في البيت. فكرت قليلاً وكدت أوقظ الأستاذ. لكنني قلت لنفسي لماذا سأوقظه؟ ربما يستيقظ ويبهدلني بسبب ذلك.

هذا ما ينقصني! بقيت برهة أعاني آلام المغص. ثم خطر على بالي مزار مالا دينان والمقبرة (تشير بيدها صوب المقبرة). قلت في نفسي: سأخرج وألوذ بهذا المكان». لم أشعل السراج لأنني ما أردت إيقاظ الأستاذ، ودون أن أعمل فكري كثيراً توجهت في ذلك الظلام نحو الباب متحسسة طريقي بيدي.

فتحت الباب ودخلت الإيوان ومنه خرجت حافية القدمين وبثياب النوم. هبت على صدري ريح ندية في تلك العتمة. وضعت يدي تحت بطني وأغمضت عيني. كان حفيف أوراق شجر الحور بجوار المدرسة يختلط بخرير الماء المتدفق في الوادي. وخلال ذلك المزيج من صوت الأوراق والمياه كنت أسمع نعيب البوم على أشجار المقبرة.

قلت في سري مبتهلة: يا إلهي ما هذا الألم والمغص في هذه الليلة. فدتك نفسي أيها المزار، يا مزار مالا دينان!.... أيها المزار الذي أرشدت عابري السبيل وأوصلتهم إلى بلادهم. أيها الذي صرت أملاً لمن أصابهم الجن وشفيتهم مما هم فيه. أيها المزار الذي حققت آمال الصبايا والشباب ولم تولهم ظهرك.

أيها المزار الذي أنزلت السكينة على قلوب الأمهات الحيارى!..... أنا الآن لست بعيدة عنك سوى بمقدار أربعة أمراس، أنا ألوذ بك....

هنا تلتفت نرجس إلى خانه وكأنها تريد أن تفشي لها بسر خفي وتقول:

- لماذا الكذب والخروج بسواد الوجه يا عمة! والله لقد كان الأمر كما أنقله لك. كنت على وشك أن أضيف في توسلي قائلة: أزل عني هذا الألم، هذا المغص وهذا العذاب...عندها انتبهت وإذا بي سليمة معافاة وقد تركتني الآلام وبقي دعائي وتوسلي عالقاً في فميْ. وحينما وثقت تماماً أن نوبة الألم قد زالت نهائياً، تماوجت في قلبي لجج يقين وأمل بلا حدود. انتاب روحي شعور رائع وأحسست أنه لم يبق بيني وبين ربي سوى شبرين وربما أقل. فقلت في نفسي: مهما أطلب الليلة فإنه سيتحقق. لماذا الكذب يا عمة! أقول الصدق

فإن أول ما خطر في بالي هو أن أدعو الله أن يمسك بيدي ويأخذني إليه. ومع هذه الأمنية فتحت عيني.

اشتدت العتمة التي كانت تلف أشجار المقبرة. وفجأة ارتعشتُ وانتابني خوف شديد. خوف لا يمكن تسميته ولا إعطاءه معنى، خوف حوّل الخطوات الثلاث نحو الإيوان إلى طريق أقطعه في ثلاث سنوات. بصعوبة بالغة اندفعت داخلة ولا أدري كيف أغلقت الباب ورائي. عدت حبوا إلى الفراش ودسست نفسي خلف ظهر الأستاذ. لم يستقر بدني حتى بعد أن صرت تحت اللحاف.

كنت أرتعش، أرتجف...هكذا! أنا نفسي لا أدري ما هو السبب. لكنني مع كل ارتعاشة كنت أتصور خيالات مخيفة وتخطر على بالي أفكار سوداء. وبالرغم من خوفي ذاك وارتجافاتي فقد كنت أقول لو أن المرء فتح كفيه بالدعاء عند مزار مالا دينان وتمنى أو طلب أشياء معينة قائلاً مثلاً: اللهم أحي فلاناً أو فلانة. ترى هل سيحظى هذا الدعاء بالقبول!» أحياناً كان الخوف يختلط في رأسي بأسئلة كتلك وألاحظ خلال وساوسي وأوهامي أن شواهد القبور تتحرك من مكانها فتظهر رؤوس الموتى. وعندما كان أولئك الموتى يحركون رؤوسهم التي يعلوها شعر أشعث مغبر، كانت الحجارة تنشق لنصفين وتنحدر من التلة. كانت قطع اللحم تنفصل عن

وجوههم وتسقط من الأعلى.

كان الموتى يمشون بصعوبة على سيقانهم، التي لم تكن سوى عظام، متجهين إلى باب بيتنا. عدت وخاطبت نفسي ثانية: لا تفكري بمثل هذه الأمور!.

لكن مع ذلك ما كانت تلك المخلوقات المباركة لتغيب عن ناظري. يا إلهي ما الذي جرى لي؟ سألت نفسي وأنا أرتعش. لا أدري كم من الوقت دامت تلك الحالة، لكنني كنت أشعر بالرغبة في النوم ورويداً رويداً غلبني النعاس. خلال غفوتي تلك سمعت عدة مرات صوتاً. نعم سمعت لكن..... حينما يكون المرء بين النوم واليقظة فإن سمعه لا يميز كثيراً.

ولكن حين تعالى ذلك الصوت أكثر، عادت إلي الرعشة السابقة في شكل حمى. ظننت أن الموتى المباركين بدأوا يتكلمون.

كنت قد أصبحت صاحية وواعية لما يجري حولي وكانت أذني بدأت تميز الأصوات جيداً. كان صوت ينادي: نرجس، نرجس، نرجس!. في كل مرة ينادي ثلاث مرات متتابعة لا زيادة ولا نقصان. قلت لنفسي: إنهم الموتى الذين ينحدرون من المقبرة. إنهم ينادونني الآن. غطيت رأسي باللحاف جيداً

وأطبقت عيني بقوة وقلت في سري: يا إلهي! ربما دخل هؤلاء

غرفتنا من الباب أو من خلال النافذة». كنت أصيخ السمع مترقبة أي صوت يصدر لدى الباب. توقعت أن يحطمه الموتى ويدخلوا. لكن الصوت الذي كنت أسمعه كان صادراً من فم واحد، أي أن شخصاً واحداً كان يناديني. وعدا ذلك لم أسمع لا أصوات أخرى ولا وقع أقدام. لكن لم يمض سوى وقت قصير حتى تعالى الصوت ذاته هاتفاً: نرجس، نرجس، نرجس».

الأستاذ الذي كان نائماً بجانبي، كان بعيداً عني بقدر ما كان قريباً مني. ما كانت لدي القدرة لأناديه. يعلم الله أن تلك المرة كانت الأولى في حياتي كلها التي أدرك فيها أهمية الرجل أو طلب المعونة منه. كنت أتمنى أن يستيقظ الأستاذ... يستيقظ ويهب لنجدتي.

لكن لم أستطع مناداته ولا حتى تحريك أطرافي لأهزه من كتفه وأقول له: قم! كان يغط في النوم وكأن على صدره تراب عشرة قبور. تناهى من جديد ذلك الصوت وهو يناديني: نرجس، نرجس، نرجس!.يا إلهي! أية ليلة مفزعة! كان الصوت يناديني وكأنه صادر عن دب جريح وأحياناً يشبه صوت عجوز أدرد يناديني بحنجرة مبحوحة. تحرك طرف من اللحاف، فقلت ها قد وصلوا. لكن كتفي أخبرتني أن الأستاذ الذي بدأ يصحو على الصوت هو من حرك اللحاف.

أدركت أنه يصغي بدوره إلى الصوت ويريد تمييزه. بقيت في الفراش وكأن اسم نرجس لا يعنيني. وحينما جاء الصوت من جديد: نرجس، نرجس، نرجس.

نهض الأستاذ وذهب في العتمة صوب الباب فلمحت بيجامته المرقطة في الظلام. بدا كهيكل عظمي لأولئك الموتى الذين تراءوا لي، وقلت في نفسي: ها هو الأستاذ سيفتح لهم الباب وسيدخلون. وإذا خطفوه أو جاؤوا وخطفوني فسيكون هذا آخر لقاء بيني وبينه. إنه في الظلام.......وبينما أنا غارقة في هذه الخيالات سمعت صوت باب الإيوان وهو يفتح.

طوال زواجي وحتى تلك اللحظة من الليلة الماضية لم يكن الأستاذ محبوباً في نظري. لكنه حين فتح الباب وصدر عنه ذلك الصرير انهد قلبي وأشفقت عليه كثيراً. أشفقت عليه وكأنني دفعته إلى الهلاك المحتوم. إنني أقص عليك الآن...... أقص عليك يا عمة ولكنني لا أعرف كيف نهضت أنا أيضاً. نهوضي وإشعالي الفانوس وذهابي إلى باب الإيوان كان دفعة واحدة. ما أتذكره.... ما أتذكره هو فقط أنني كنت أود الخروج لولا سماعي صوت الأستاذ.

صاح في العتمة بحدة: من أنت؟.وقبل أن أسمع أي جواب من الخارج لمحته في طرفة عين.

الريح التي كانت تهب جعلت من الفانوس الذي في يدي أرجوحة تهتز ومنعت علي الرؤية. لكنني رأيت. أخيراً رأيت. وتمنيت لو أني لا أرى. بعيداً قليلاً عن باب الإيوان كان شيء ينتصب مثل عمود غليظ بدون حركة.

كان أبيض من أعلاه إلى أسفله وكأنه ملفوف بلحاف أبيض. من وسطه إلى أعلى كان يبدو أغلظ. أمعنت فيه النظر فرأيت في أعلاه شيئاً يلمع كالخرز في ضوء الفانوس. كان يبدو مثل إنسان. لكنه كان يشبه أشياء أخرى كثيرة أيضاً.

أشياء ما كنت قد رأيتها قبلاً. لم يكن بإمكاني التمييز جيداً ومعرفته على حقيقته. قلت في نفسي: إنه إنسان. عيناه.......... لكنني فكرت وسألت نفسي ترى لماذا تلمع إحدى عينيه فقط؟ ثم خطرت لي فكرة أخرى: إنه سيدنا الخضر وقد جاء ملبياً دعوتي واستغاثتي..... فقد كان شعره أبيض كالصوف.

ما أرويه هنا من أفكار يا عمة، اعترتني خلال نبضتين أو ثلاث من نبضات القلب. بعد ذلك... بعد ذلك سمعت ذلك الصوت الذي كان يناديني قبل قليل، سمعته يجيب الأستاذ بهدوء قائلاً: يا أستاذ.....أقسم بالله يا عمة كان الأمر كما أرويه لك..... مع جوابه ذاك شعرت بصداع شديد في رأسي، فأمسكته بيدي وعدت

بخطوات واسعة إلى الداخل.... عرفت اسم صاحب الصوت. لم يكن من أموات المقبرة ولم يكن سيدنا الخضر أيضاً. كان سيابَنْدْ الناطور الأعور. كان قادماً من الكروم ويقول: «يا أستاذ... .أنا أعرف أن نرجس حامل. قلت..... إنها أكيد تتوحم.... فأحضرت لها هذه الإجاصات».

خانه التي كانت تصغي بخوف وترقب ولهفة إلى رواية نرجس، تضحك في هذه اللحظة ضحكة مدوية يسمعها زوجها ثقيل السمع صائب وجميع النساء والفتيات اللواتي على النبع المقابل لبيتهم. لا تستطيع الكلام لشدة الضحك، بينما ما تزال نرجس واقعة تحت تأثير حادثة ليلة البارحة مرتعبة خائفة وتنظر بخجل إلى صائب الجالس في ظل الجدار، وتقول بصوت خفيض مواصلة سرد ما حدث لها:

– إيه يا عمة.. أنت تضحكين.. لكنني خفت كثيراً. أنت لا تعرفين... لا تعرفين يا عمة كم مرة مت البارحة وعدت إلى الحياة ثانية. أتعرفين كم مرة انتابني رعب شديد؟ حتى أنني خفت بعد الحادث، ولكن هذه المرة ليس من موتى المقبرة. كنت قلقة جداً وأفكر كيف سيفسر الأستاذ هذه الحكاية. الرجال شكاكون وعقلهم يذهب بعيدا.

كنت أخاف أن يقول لي:.سيابَنْد هو عشيقك. وإلا فما معنى الإجاصات وقصة الوحام في منتصف الليل؟. كنت أقول لنفسي وأنا مستلقية في الفراش: ترى كم ضربة من العصا وصفعة ستكون من نصيبي؟.لكنني كنت أجيب بنفسي وأقول: وماذا أفعل؟ أنت تعرف أنه مجنون. هل تصدق أنني طلبت منه أن يأتيني بالإجاص؟ وهل كنت سأنادي هذا المجنون الأعور ذا الشعر الأبيض لو كنت أنوي شيئاً كهذا؟»

لا تهدأ موجة ضحك خانه، تنزاح كوفيتها إلى الخلف وينفلت خمارها، تتلمس بطنها وتريد أن تقول: إي..ثم ماذا؟.لكنها تتمكن فقط من قول إيي؟... تواصل نرجس حكايتها وتقول:

- إي... هكذا يا عمة. احتد الأستاذ كثيراً وفار غضبه. تناول منه الإجاصات وضربه بها واحدة واحدة. ثم عاد إلى الغرفة مع فورة غضبه ذاك لكنه لم ينبس ببنت شفة ولم يسألني شيئاً.

ولو سألني لما استطعت إفهامه لأنني أنا نفسي لم أكن على علم بأي شيء. أعتقد أن الأستاذ أيضاً فهم الموضوع. لذلك نظر إلي شزراً، وبصق في وجهي ثم أطفأ النور واستلقى على السرير مندساً تحت اللحاف. كل ما جرى لي ليلة البارحة زال مع غفوتي في مطلع الفجر ولا أدري متى نمت يا عمة.

وهذا الصباح حينما استيقظنا من النوم لم يحدثني الأستاذ عما جرى وكذلك لم أحدثه أنا. وبقيت الحادثة كسؤال يقض مضجعي حتى الضحى. لكنني كنت أقول إن ما جرى لي كان مجرد أضغاث أحلام. حلماً من أحلام ليالي الحمل.... لم أكن أصدق. وكما أن عشرة يأمرونني بالخروج ومراقبة الآثار المتبقية من الحادث، خرجت ونظرت فإذا بي أمام إجاصات كثيرة مهروسة ومرمية على الأرض.

هنا تتساءل نرجس بسذاجة:

- صدقاً أنا لا أفهم إلى الآن يا عمة لماذا جاء ذلك المجنون وبماذا فكر؟ كدت أموت رعباً. خفت كثيراً يا عمة، كثيراً جداً...

تضحك خانه وتقول:

- ولماذا تخافين؟ ليت رجلاً جاءني... هه.. هه... هه... ليت رجلاً جاءني أنا أيضاً ببعض الإجاصات. حينها...حينها كنت سأبادلها معه بإجاصات صدري.... هه.... هه.... هه!

نرجس تعرف هذه الطبيعة في خانه، تعرف أنها تخلط الجد بالهزل، ولكنها تبدو كمن تقول لنفسها: لا يمكن الهزل في هذا.. وتريد أن تعرف الحقيقة. لذلك لا تبادل خانه نفس الشعور فلا تضحك، بل هي حزينة ومشوشة الفكر من بعض الأمور.

تراقب خانه حالتها هذه، تعود وتضيف إلى كلامها السابق:

- سيابَنْد ليس مجنوناً يا ابنتي. سيابند صاحب أسرة، متزوج وله بنات وبنون. ألا تعرفين أن العجوز يملك قطيعاً من الأحفاد يا مقصوفة الرقبة!

- أعرف يا عمة.. أعرف. لكن لماذا فعل ذلك؟ أنا لا أفهم تصرفه. أعتقد أنه بدأ يخرف.

توشك خانه على الضحك لكنها تتماسك فتحبس ضحكتها، تحاول أن تفهم نرجس فتقول:

- لا لا. ليس مجنوناً ولا خرفاً.

إنه رجل أبله قليلاً. والأصح أنه طيب القلب وساذج. أظن أن طائفته من الجن الأفضل منا حاموا حوله ومنعوا عنه النوم، فتذكر حملك لذلك قام.....

تقطع نرجس كلامها وتسأل بدهشة:

- ماذا قلت يا عمة ؟ ماذا قلت؟ الجن. طائفته؟

- نعم، نعم.... سيابند صاحب جن. إنه ليس مجنوناً حتى....

أبله، مجنون، صاحب جن!! يبدو جلياً أن نرجس لا تستطيع فهم ولا استيعاب الموضوع. تفتح كفيها محتارة وتقول:

- أففف يا عمة!.... لقد جمع الله كل مجانين الدنيا في هذه القرية... كل من تتحدثين عنه أو تسألين عن أوضاعه......

تضع خانه يدها على ركبة نرجس، تبتسم وتؤكد على كلامها قائلة:

- صحيح والله. كلامك صحيح يا نرجستي. أيوجد عاقل واحد في هذه القرية!

تنهض خانه على عجل مع كلماتها. تقوم وكأنها ترى أحداً من بعيد. تنفض ثوبها وتصلح كوفيتها بينما تواصل التحديق في الشارع.

تلمح من جديد كوزي الذي تراءى لعينيها قبل قليل. تصيح فجأة بصوت أعلى من صوتها التي كانت تتحدث به إلى نرجس وتقول:

- هيه كوزي! تعال... تعال وغن أغنية عن بَرو. تعال.

تضحك خانه تلتفت مرة أخرى إلى نرجس وتخاطبها قائلة: انظري! ها أحدهم قادم. إنه فوق جنونه مطرب أيضاً.

المغني يرتدي سترة خفيفة وسروالاً أبيض مرقعاً وقصيراً، يحمل عصا في يده اليسرى ويتجه صوب فناء الدار حافياً وهو يتمتم بأغنية:

النجدة أيها الأمير. يا أميري النجدة

إن بيت صائب لهو بيت الأبطال والأمراء

وبرو سيدة، خاتون وحبة القلوب

إنها حبة قلوب الجرحى، جرحى السيوف والخناجر

النجدة يا أميري النجدة.

.........

يقف كوزي على باب الفناء الكبير، يمد يده اليمنى الخاوية باتجاه ظل الجدار ويسحب رقبته للخلف. ثم يقول بصوته ذي النغمة الخاصة:

- أليس كذلك يا أخي؟.... بحق الله أليس كذلك يا صائب؟ لماذا تنزعج يا أخي؟

صائب، الذي توضأ لتوه وجلس على مصطبة صغيرة مصنوعة من جذع شجرة، يضحك ضحكاً خفيفاً إذ يسمع كلمات كوزي ويقول:

- هيه! تعال يا كوزي. تعال نعمل اتفاقاً.

يمر كوزي بجانب قدر السويق المطبوخ متجهاً نحو صائب.

يقف على بعد ثلاث خطوات منه. يمد يده الخاوية مرة أخرى للأمام ويسحب رقبته للخلف ويقول:

– ماذا يا سيدي؟ أي اتفاق؟...

– تعال نعقد اتفاقاً مباركاً. كما يعقد النَوَر مراهنات واتفاقات بخصوص البغال والحمير. أنا وأنت أيضا... سنعقد..... سنعقد اتفاقاً بشأن النساء. تعال أعطني أمك وخذ خانه عوضاً عنها.. وانتهى... هه...هه...هه!

لا يمكن لكوزي أن ينسحب من معركة الشرف أبداً. ولا شيء يثير في نفسه رغبة الدفاع عن الشرف كما يفعل ذكر أمه. وطالما تكلم الناس على أمه ليثيروا أعصابه. إنه يحتد ويثور بسبب كلمات صائب. يرمي عصاه على الأرض ويرفع يده فوق صائب الجالس ويدمدم:

– انظر يا! أنا لا تهمني كل السجون والزنازين! فلماذا تضع دمك في رقبتي أيها الديك العجوز! اذهب ومت بأجلك...

ثم يلتفت إلى خانه ويقول لها في نبرة بين العتاب والنصح:

– انظري يا خانه! قولي لزوجك ألا يضع دمه في رقبتي!.... اسأليه ما قضيته؟ إن صائب خرفان... والله إنه خرفان.

يضحك صائب الخرفان، يرتدي حذاءه ويخرج من الفناء إلى الشارع وهو يتمتم مردداً اسم أم كوزي لكي يدفعه إلى الغضب أكثر. خانه تلفت نظر نرجس بضحكها من جهة، ومن جهة أخرى تري قصعة السويق لكوزي وتقول له بتوسل:

- تعال يا كوزي تعال... تعال ودع صائب... تعال وتذوق هذا السويق.

في أوقات ثورته وغضبه، يرمي كوزي كل ما في يده على الأرض. ويقاتل بيديه العاريتين. هذا هو أساس تكتيكات معاركه. وفي كل معاركه لا يلمس أحداً بيده، إنما يهدد ويتوعد ويرغي ويزبد حتى تهدأ ثورته، ليعود ويلملم كل ما كان قد بعثره على الأرض.

والآن أيضاً فإنه يلتقط عصاه التي لا تجدي نفعاً في أي شجار، يتجه صوب قدر السويق، يأخذ القصعة والملعقة من يد خانه وبدون أن ينظر حوله أو يتكلم إلى أحد، يتناول السويق ويرفع الملعقة إلى فمه، بعصبية يأخذ الخبز والبصل الموجودين في سلة بجانب القدر، يأكل بطريقة تثير الجوع حتى في نفس أكثر الناس شبعاً .

تدمع عيناه من رائحة البصل الواخزة، يشد على الملعقة بين أسنانه ويصدر عن منخريه ما يشبه صفير ريح الشمال. في كثير من الحالات المماثلة يرثي المرء لحال كوزي ويظن أنه لم يذق طعاماً منذ

ثلاثة أيام.

رأت نرجس مشاهد كهذه، مشاهد البله ومجانين القرية مرات كثيرة، لكنها لم تعاين تلك المشاهد عن قرب كما الآن. الآن تدرك أن مجانين القرية الجاثمين في زوايا البيوت وباحاتها لا يتذكرون الطعام ولا يطلبونه ما لم يتذكر رب البيت ذلك أو ما لم يجع أصحاب البيوت أنفسهم. ولكن وبفضل الله فإنه ثمة من يرق قلبه مثل خانهِ لهؤلاء المجانين ويرون من واجباتهم المقدسة إطعامهم كل يوم من فضل لبنهم ومخيضهم. إنهم يضعون ما تيسر منه في زاوية من الدار وبجانب ذلك أرغفة من الخبز وبضع قصعات وما إن يروا أحداً من هؤلاء البؤساء حتى ينادوهم ويدعوهم للطعام.

تجلس خاني ونرجس قرب كوزي وتراقبان طريقة أكله. تخاطبه خانه بحرقة قلب:

– كل يا تقبرني، كل! كل وسأملأ لك القصعة ثانية.

يعيد كوزي كلماته التي تفوه بها قبل قليل بسرور يخالطه الضحك:

– أي نعم! بيت صائب بيت الأكابر. لكن صائب أحياناً.... نعم، إنه يعملها تحته!...هه....هه...هه! أليس كذلك يا خانه! بحق الله... أليس صائب كذلك يا خانه!... ألا يعملها تحته يا خانه؟

مع كلامه ذاك يتطاير فتات الخبز ممزوجاً بالمخيض من فمه. تغمز خانه بعينها لنرجس، تلتفت إلى كوزي وتقول:

– نعم هو هكذا ... هو هكذا... لكن ماذا فعلت مع بَرو يا كوزي؟

– ستأتي بَرو!.... ما شأنك أنت بها يا خانه؟

– يا خبيث، يا مقصوف الرقبة!.... لقد كبر أولادها...!

– نعم، سيعمل أولادها أيضاً لأجلي. سنصبح من الأكابر نحن أيضاً.

– وهل تملك مالاً وأراضٍ يا خبيث يا مقصوف العمر؟

– نعم أملك، أرض الله واسعة يا خانه!

بعد أن يأتي كوزي على القصعة الثانية، يمسح بيديه على فمه ووجهه، ينهض، يلتفت إلى خانه ويقول:

– خانه امرأة طيبة! بيت صائب بيت الأكابر يا رجل! اهتمي بالديك العجوز يا خانه ولا تدعيه يعملها تحته! أسفي على صائب، لا تدعيه يصاب بالإسهال....!

ثم يخرج إلى الزقاق مغنياً أغنيته السابقة وقد امتلأ بطنه.

تنظر خانه فيما حولها مبتسمة. بكبرياء ورضا عن النفس تنظر إلى

الشارع. تدرك نرجس أن خانه مسرورة بعملها، أنها تزداد سروراً كلما أطعمت جائعاً، فتسألها بفضول المرأة:

– يا عمة، كنت تتحدثين معه عن بَرو، فمن هي هذه؟

– بَرو كانت حبيبته في زمن ما! كانت فتاة جميلة. كان هذا المجنون يتجول في أزقة القرية ويقول: أنا أحب بَرو، لقد همت بها، لقد جننت من أجلها. أوتظنين أنه كان عاقلاً فيما مضى؟...هه.... هه...هه.. لكنه كان قد عشقها فعلاً. وكان قد سمع بعادة خطف البنات..... إيييه... وذات يوم وفي ساعة متأخرة من الليل اتجه إلى بيت أبيها ووقف هناك. انتظرها لتخرج فيخطفها.

في تلك اللحظة ولسوء الحظ خرج أحد ما من الدار. جاء كوزي ووقف مباشرة في مواجهة ذلك الشخص وهمس: بَرو، ألا تأتين لأخطفك ونرحل؟.عاد ذلك الشخص أدراجه صامتاً ودخل الدار ثم خرج. أعاد كوزي كلماته السابقة لذلك الشخص الذي يتقدم في الظلام وهو ملتحف بعباءة سوداء. أتى والتصق بكوزي، أمسك بيده وسار.

لم يتكلم صاحب العباءة السوداء حتى وصلا إلى الوادي الواقع خلف منازل القرية. اهتز كوزي طرباً بنجاح عملية الخطف وسأل: أين نذهب يا بَرو؟.لكن لم يأته جواب. حين وصلا الوادي، رفع دِلو،

والد برو، العباءة عن جسمه ونزل على صدر كوزي وأشبعه ضرباً. ما تزال صرخاته ترن في أذني. تلك الليلة كان يتناهى إلى السماء صوت منكر خافه الكثيرون. ثم ذهب بضعة قرويين إلى الوادي وبصعوبة بالغة أنقذوا المسكين كوزي من براثن دِلو. على أساس أنه كان شيخ القرية.. تباً له! وليفقأ الله عينيه!

كيف طاوعته نفسه على ضرب ذلك البائس!.. والله لقد صادفت والد بَرو ذات مرة وبهدلته. لكن أتهمه البهدلة! ذلك الخبيث! فوق ذلك كان يعوج فمه ويقول: كله من وراء رأسك ورأس أمثالك! إنكم تهتمون بهذا المجنون.

على المرء أن يعيد العقل للمجانين يا خانه. لكنني غضبت كثيراً ذلك الحين. أنا عمتك!.... والله لقد مددت يدي إلى ياقته وهززته بضع مرات وقلت له: عليك أن تخجل يا شيخ.. عليك أن تخجل!... على أساس أنك شيخ هذه القرية.... حسناً لنقل إنه مجنون، هل أنت أيضاً مجنون لترتدي عباءة سوداء في نصف الليل وتخرجه من القرية وتضربه!... ألا تخاف الله أيضاً!... وحق أسماء الله الحسنى إنك اندسست بيننا كالشيطان. نعم كالشيطان. بعد عدة أيام انتقل من القرية، فقد كان غريباً فيها.

وكأنها ترفع الغطاء عن عفريت، تحتد خانه وتقول لنفسها:

«هكذا كان.... كل من يأتي إلى قريتنا يصبح مجنوناً أكثر منا»، ثم تعود وتلتفت إلى نرجس وتضيف قائلة:

- فدتك روحي يا بدويتي.... أنتم أيضاً غرباء عن هذه القرية... لكن أنا لم أقصدكم بكلامي. ها أنت ترين بنفسك أن... كلما تحدثت عن تلك الحادثة أرتجف خوفاً.

تسأل نرجس بما يشبه الحياء:

- لا، لا يا عمة. أنا لا أزعل. لكن.... لكن ماذا حصل بعد ذلك؟

- لم يحصل أي شيء. لقد انتقلوا وراحوا. والآن إذا أراد أهل القرية أن يثيروا غضب كوزي ويضحكوا عليه حدثوه عن بَرو. وربما قال له البعض: يا كوزي.. ها هي برو في بيت فلانة. فيقوم المسكين مثل عاشق ولهان ويتوجه إلى ذلك البيت.

نرجس على علم ببلاهة وجنون هذه القرية، وتعلم أن الناس يحدثون المجانين عن النساء والزواج. لكنها لا تفهم كيف أن مجنوناً يمكنه أن يصبح عاشقاً.

يتحول هذا الأمر في ذهنها إلى سؤال تطرحه على خانِه:

- أيمكن للمجانين ومن بهم مس أن يعشقوا يا عمة؟

– المجانين ومن بهم مس! والله إن عشقهم لأشد بأساً وأطول مدة. في قريتنا هذه، كان يوجد، مجانين وممسوسون ربما أكثر من الآن. كانوا ظرفاء لدرجة أن المرء ما كان يمل من الجلوس إليهم. مات منهم العديدون. كان فيهم فتيات أيضاً...

تقطع نرجس حديث خانه بسرعة وتقول:

– مهلاً يا عمة مهلاً.. أقلت فتيات أيضاً؟

– نعم نعم.... ومنهن... أتذكر أننا كنا بعد عزباوات، وكان في بيت نَزِكان فتاة اسمها كَوى. كانت جميلة وحلوة مثل حمامة. لم أر في قريتنا فتاة في جمالها حتى الآن. كان شعرها الأشقر المفلفل يسرح ويمرح حتى ردفيها. كان لها قد ممشوق وقوام ممتلئ. طويلة العنق، عيناها واسعتان وفي زرقة خرز هذه الخيول. كانت شفتاها الحمراوان تبدوان من بعيد مثل رمانة مشقوقة. لكن كانت لها عادة سيئة وهي أنها تجثو على ركبتيها وتطرح ثوبها على رأسها وترهف السمع إلى الأرض لساعات. ولأنها كانت تتصرف مثل هذه التصرفات الجنونية، لم يكن أبواها ليهتما بها كثيراً، فما كانا يطعماها أو يشتريا لها ما يكفيها من الثياب.

وكانت أمي رحمها الله ترقع ثيابنا العتيقة وتلبسها إياها. بعد مدة من الزمن تركت كَوى عادتها تلك. ولم تعد تطرح ثوبها على

رأسها وتصغي إلى الأرض. لكنها بدأت تتسلق الأشجار هذه المرة. وصارت تتجه للسماء وتصرخ منادية: مَرْكوس، مركوس!.... كان ثوبها المشقوق في أعلاه يظهر صدرها بنهديها الشبيهين بثمرتي شمام.

ذات يوم قالت لها أمي: لقد أصبحت كبيرة يا كَوى! لماذا تتسلقين الأشجار؟ عيب، قد برز نهداك!. نظرت كوى بحزن إلى نهديها، لمست الحلمتين وداعبتهما قليلاً ثم ردت على أمي قائلة: لأنني هناك، فوق الأشجار، أراهم بوضوح أكثر. مخلوقات السماء أفضل كثيراً من مخلوقات الأرض.

شعورهم طويلة ومفلفلة، يهبطون على الأرض مثل النجوم. أثوابهم رقيقة، رقيقة جداً لدرجة أن المرء يتصور أن البيض فقسهم للتو. أنا أتسلق الأشجار حتى يمد مركوس يده إلي ويأخذني لأعلى. أنا أريد منه أن يمد يده مرة أخرى إلى نهدي ويقول: «نهداك جميلان وناعمان. وقتها اندهشت أمي قليلاً ونظرت إليها بريبة ثم قالت لها غاضبة: ما هذا الهراء أيتها الكلبة المجنونة!... والله سأخبر والدك أيتها الحمارة!.... سأقول له لكي يقص شعرك ويجدع أنفك ويصلم أذنيك....حزنت كَوِى... كَوِى المسكينة لدى سماعها كلمات أمي تلك. وخبأت نهديها في الأسمال التي كانت تغطي صدرها

وقالت منزعجة: قال لي مَركوس إنه سيكسر كل يد تمتد إلي. ثارت أمي ثانية في وجه تلك المسكينة وقالت لها: تباً لك ولصاحبك مركوس!.... من يدري أي فاسق مد يده في الظلام إليك! .. لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى يا كلبة....لكن كَوِى بدأت تبكي بحرقة. وأخذت عيناها الواسعتان تذرفان الدمع إلى أن قامت أمي وأحضرت لها قليلاً من اللبن الرائب والخبز.

يثور الفضول لدى نرجس فتسأل خانه:

– ومن هو مركوس الذي كانت كَوى تتحدث عنه يا عمة؟

– لا أعرف، لكن قيل الكثير بخصوص ذلك. في البداية قالوا إنه لا يوجد شيء بهذا الاسم. بعد ذلك قيل إن كَوى اخترعت هذا الاسم بنفسها.... وحده الله يعلم بحقيقة ذلك.

كانت أمها تقول إن صداعاً ألَمَّ بها ذات ليلة ثم ارتفعت حرارتها. فأتت بها إلى ركن الموقد في الإيوان ومددتها على سرير هناك لكنها كانت غائبة عن الوعي وتهذي بسبب الحمى. كانت كلماتها غامضة وجملها غير كاملة ولم تفهم منها أمها شيئاً.

ثم انقطع أنينها فنهضت أمها لتذهب إلى النبع وتأتي بالماء. ولما عادت أمها وجدت أن الشمعة التي كانت عند رأسها قد انطفأت.

وحدها حمرة نار الموقد كانت تتوهج على خديها. كانت كَوى

جالسة. ولما رأت أمها أنها جالسة وقد زال عنها الألم، فرحت كثيراً لكن سرعان ما خالجها شعور بالخوف والشك في الأمر وقالت لنفسها: فديتك بروحي لماذا أنت جالسة في الظلام! أشعلي شمعتك يا حمامتي!...لكن حمامتها لم ترد عليها.

كانت تحدق في الجمر المتوهج في الموقد. أشعلت أمها الشمعة ورأت أن صدرها مكشوف وشعرها أشعث. ظنت أمها لأول وهلة أنها فتحت أزرار قميصها من شدة الحمى فلم تهتم بالأمر كثيراً. لكنها سألت ابنتها بصوت أم رؤوم: «لقد زال الصداع عن رأس ابنتي، أليس كذلك؟.

ودون أن تنظر كَوى إلى أمها قالت: بلى، الآن زال عني الوجع. لقد جاء مَركوس ووضع يده على جبيني.

تحسس شفتي بأصابعه. ثم... ثم وضع يده على صدري وقال: «نهداك جميلان وناعمان». صدمت أمها وخافت. حدقت في نهدي كَوى ورأت آثار الأظافر بأم عينيها.

يختلط الخوف بالفضول لدى نرجس، فتحزن من جهة وتتوق من جهة أخرى لمعرفة بقية القصة وماذا جرى للمسكينة كَوى، فتسأل بخوف ولهفة وبعينين مغمضتين قائلة: لكن.... ماذا بعد يا عمة؟

- ثم عاشت كَوِى عمرها وهي تهتف باسمه، كانت تدور في الأزقة وتنادي: مَركوس وضع يده على نهدي! إنه يحبني!....لكن أحوالها ساءت كثيراً بعد ذلك.

كانت تقوم في الليل وتتجه إلى كهف زونْجِك. إنك لم تشاهدي كهف زونْجِك الواقع أعلى بيت باجو. يقال إن جوفه مظلم.... مظلم لدرجة أن الرجال لا يجرؤون على النزول إليه وحيدين. يقال إن ذاك الكهف مكان يقيم فيه الجن الأفضل منا احتفالاتهم. في كل ليلة أربعاء يحتفل الجن هناك.

كثيراً ما مر الناس هناك وسمعوا بآذانهم قرع الطبول وعزف المزامير.... كانت كَوى تذهب في تلك الليالي إلى هناك. وكثيراً ما أعادها القرويون من منتصف الطريق إلى بيتها.أوسعها أبواها ضرباً. قيداها في مخزن التبن. ألقيا بها خلف الأبواب ولم يطعماها إلا الكفاف... لكن الفتاة لم تبرأ مما بها. أخذاها إلى مزار مالا دينان وربطاها إلى الشجرة عدة أيام حتى الفجر دون جدوى. كانت حالتها قد تفاقمت.

كانت تبدو أحياناً هادئة جداً، وأحياناً أخرى تصبح مسعورة وتخرج إلى الشارع تلقي ثوبها على رأسها وتتقافز راقصة لمدة ساعتين وهي تقول: أربعاء وخميس!.....كانت قد تعلمت تلك

الرقصة الجنية في كهف زونْجِك. ما كانت لتتحدث عن أي يوم آخر سوى يومي الأربعاء والخميس! ثم سمع أبوها أن في منطقة الجزيرة شيخ مشهور. أبوها المسكين!.... أتذكره وهو يتقدمها ذاهبا لزيارة الشيخ. بعد عدة مرات أصبحت البنت تمتنع عن الذهاب، كانت تسب الشيخ وتلعنه وتهرب.

تهرب من القرية كلها ومن القرويين. كانت فيما مضى تحب أمي كثيراً، لكنها في أيامها الأخيرة لم تعد تزور أمي أيضاً. كان أبوها يقيدها بحبل ويجرجرها وراءه. كانت صرخاتها تتعالى حتى الساحة العليا وهي تقول: اهرب يا مركوس. اهرب! شيخ الجزيرة خائن وسيقتلك ويحرق بيتي. اهرب يا مركوس».

نرجس تسأل وهي تغص بدموعها وقد رق قلبها وأخذ ينبض بتسارع:

– هل عرفوا بعد ذلك من هو مركوس يا عمة؟

– الله وحده يعلم. ولكن حسب قول الشيخ فقد كان مركوس واحداً منهم... من الجن. وكانت كَوِى قد تزوجت منه. وما كانت تريد أن يطلقها الشيخ من ذلك الجني. وحسب ما رواه والدها فإن الشيخ قد قال: الجن طائفتان، طائفة طيبة صالحة وطائفة شريرة....

ومركوس ينتمي إلى الطائفة الطيبة من الجن. إن كُوِى تنبهه لكي لا يأتي ويقع في الفخ والمياه التي أقرأ عليها.

إنني أقرأ وأقرأ... يأتي الكثيرون منهم لكن مَركوس لا يأتي. لتبق الفتاة هنا حتى أتمكن من رفع الجني عنها. كانت البنت تبقى حوالي أسبوع لدى الشيخ. مشيئة الله... مشيئة مباركة.. لا أتذكر جيداً، لكن البنت حبلت وصار في بطنها ولد.

صارت هي وحملها حديث القرية. كانوا يختلقون القصص عنها كل حسب هواه. أما الشيخ فقد أخبر أن الفتاة قد حملت من الجني مَركوس. صار هذا الحمل هم أبيها الأكبر. كان عبئاً ثقيلاً تعجز عن حمله الجبال. المسكين.... كان يخجل كثيراً ولا يريد أن يرى أحداً من أهل القرية. حتى أنه لم يعد يحضر صلاة الجمعة. إلى أن ماتت البنت ذات يوم.

نرجس تنظر إلى خانِه باندهاش وصمت، ثم تقول بنبرة يخالطها البكاء وكأنها لم تكن تتوقع هذه النهاية:

– ماتت؟

– نعم، ماتت.... ماتت لكن موتها كان رهيباً. قال بعضهم إن أصحابها من الجن قتلوها، بينما قال آخرون إنها قتلت بسم

البراغيث.

وعلى ذمة الراوي فإن أباها أطعمها سم البراغيث ليتخلص من عارها. حتى أنهم لم يسمحوا للحكومة بالكشف عليها ودفنوها سريعاً. كانت أمها تبكي وهي تروي آخر أيامها: قبل موتها كانت كَوِى تنادي: مركوس! مركوس! ...» كانت تصرخ. ثم تنظر إلي بعين الواثقة من نفسها وتقول: أنا ومركوس لم نهنأ ببعضنا إلى الآن.

تزداد دهشة نرجس ولهفة لسماع بقية الحكاية، يرق قلبها أكثر، تتسع عيناها وتسأل خانه من جديد:

– فدتك روحي يا عمة! وماذا كان أبوها يقول؟

– الأب المسكين!... لو رأيت وضع هذا الأب البائس. لا ذاق الأعداء طعم بؤسه! لم يعد يتكلم بعد موتها. كان أهل القرية يواسونه ولا يتركونه لحظة واحدة. لكنه بقي على حاله. قيل إنه كان منزوياً في إحدى زوايا بيته لا يغادرها.

لا ينظر فيما حوله ولا يذوق أي طعام أو شراب. كانت زوجته تقول إن موت كَوِى أثر فيه كثيراً وجعله في تلك الحال. بعد موت ابنته بثمانية أيام تبعها هو أيضاً وأسلم الروح كمداً على فراقها.

نرجس متخشبة في مكانها، متيبسة بحيث لو طعنت بالخنجر لما نزف منها الدم. غصة البكاء تحرق حنجرتها، أنفها يحترق وشفتاها ترتجفان. تريد أن تقول شيئاً آخر، أن تسأل سؤالاً آخر لكن غصة البكاء لا تسمح لها بذلك. تجمع كل قوتها وتقول فجأة:

– وأمها؟

مع سؤالها هذا تنفجر بالبكاء. بكاؤها صادر من أعماق القلب. تحتضن خانه نرجس وتمسح دموعها بطرف ثوبها وتقول:

– ويلي!... فدتك روحي، لماذا تبكين؟... أنت تسألين عن أمها! أمها ما تزال على قيد الحياة. أتعرفين لَتو؟ الخالة لَتو هي أمها. لكنها هي أيضاً.... أنت تعلمين أنها مصروعة. إنها تذهب كل خريف حيت تزهر النباتات على القبور ... تذهب لزيارة قبر ابنتها تبكي وتنوح.. وهذا دأبها إلى نهاية الخريف.

نرجس تشهق بالبكاء. ولكي لا يراها أحد فتخجل، تقوم وتذهب إلى حظيرة الخراف لتبكي براحتها. تأتي خانه بين الفينة والأخرى إلى الحظيرة وتناديها:

– هيا اخرجي. هل أنت مجنونة!

تبكي نرجس كثيراً. تحمر حدقتاها من شدة البكاء. يسيل أنفها فتنظر خانه إلى بؤسها، تخرجها من الحظيرة وتقول لها مبتسمة:

- كفى، لقد بكيت كفاية.

تطرق نرجس برأسها، لا تتكلم ولا تنظر إلى خانه، بل تحدق أمامها في قشة أو حصاة وكأن خيالها يستمد منها أفكاره. ترغب خانه في تهدئتها فتقول لها مبتسمة:

- والآن قولي لي، ماذا كان سيابَند يريد منك يا مقصوفة الرقبة..!

لكن مزاح خانه هذا لا يزيل آثار البكاء عن وجه نرجس الجميل. إنها الآن رقيقة القلب ومرهفة الحس وكأنها أصغت لتوها إلى أغنية حزينة. لا تستطيع الكلام لكنها ترد بابتسامة باردة متمتمة بصوت واهن وكأنها تحدث نفسها:

- سأذهب الآن يا عمة.

- لا، لا..ابقي معي!... أترقدين على البيض في بيتك!

ما زالت نرجس تجهش بالبكاء، تنتزع ابتسامة ناعمة من شفتيها، تخبر خانه أن عليها الذهاب إلى البيت، تودعها وتغادر فناء الدار مارة بجانب قِدر السويق، تشيعها خانه حتى باب الدار. ترى هناك

طفلين يلعبان في تراب الشارع. تدعوهما لتناول السويق.

عند بيت شرّو، يسمع المدرس صوت ميخو الناطور وهو يقول:

– هيا قم يا رجل! لقد غربت الشمس فمتى ستحلق شعري؟

يرد عليه شرّو بعناد قائلاً:

– وحق اسم الله لن أمد يدي إلى شعرك ما لم تدفع الأجرة سلفاً. هل اقتنعت الآن؟

من خلال الباب يرى المدرس مجلساً صغيراً قد انعقد كالعادة على مصطبة في فناء منزل شرّو. ويعتبر فناء هذا الدار مستراح أهل القرية جميعاً وليس فقط أهل البيت. فحين يعتدل الجو في الأصائل يجتمع فيه بعض الناس الذين يرونه مكاناً أفضل من مضافة القرية.

حتى هُوتو المتشرد حاضر في الجمع. ميخو يريد من شرّو حلاقة شعره، لكن شرّو مشغول بخراطة مقبض سكين، بينما زوجته جالسة أمام موقد في فناء الدار تحشي أقراص الكبة.

يقول المدرس – كمن أسعده ذاك المنظر– بصوت مبتهج:

– يبدو أنكم مختلفون حول قضية ما مرة أخرى.

يرد عليه شرّو صاحب الدار:

– ها هو الأستاذ قد حضر. فليحكم هو..

ثم يضع من يده القدوم ومقبض السكين جانباً وينهض واقفاً

وينفض مقدمة سرواله، يتقدم صوب المدرس ويواصل الكلام قائلاً:

– ليحكم الأستاذ بنفسه. أستحلفك بالله يا أستاذ قل لي كم يكلف إصلاح الشعر وحلاقة الذقن في المدينة؟

يمد المدرس يده إلى جبينه ويبتسم، يحاول أن يتذكر سعر الحلاقة في المدينة لكنه سرعان ما يدرك أنه لم يعد على علم بشيء من هذا القبيل. كان قد أصلح شعره وذقنه قبل أن يأتي إلى هذه القرية بحوالي أسبوع، ثم اعتاد أن يحلق شعره عند شرَو إما بالدين أو نقداً بمبلغ بسيط.

تنطفئ الابتسامة المرسومة على وجهه رويداً رويداً لكنه لكي يثير الحماس في المجتمعين يقول:

– فلنقل إن حلاقة الشعر بعشر ورقات ومع الذقن بخمس عشرة ورقة.

ينظر شرّو بيأس إلى ميخو الناطور، يرفع يديه ويخفضهما ثم يقول:

– وأنا سأكتفي بورقة واحدة من الخمس عشرة ورقة. نحن أبناء قرية واحدة، معارف وأصحاب..... لا بأس أعطني ورقة واحدة تكفي. النقود نقود مهما كانت فئتها صغيرة.

ينظر المدرس أولاً إلى ميخو الناطور، ثم ينقل بصره إلى جهة شرّو ويسأله:

- فلنر أولاً كم يريد أن يدفع هو؟

يرد شرّو وكأنه لا يرى بصيص أمل ولو صغير في زبونه:

- لا أدري. لو تركنا الأمر له، فهو لن يدفع فلساً واحداً. فليدفع قدر المستطاع. النقود نقود ولا يمكن أبداً أن أقص الشعر مجاناً.

يرد ميخو الناطور بلهجة ساخرة:

- حتى عيني لن يفقأها مجانا.

يشير بيده إلى قدر الكبة ويضيف بسخرية:

- ولو قلت له مثلاً: خذ خمس ورقات وأخرج أقراص الكبة من القدر بيدك عوضاً عن المغرفة. لفعلها شرّو.... أنا أعرف جيداً أن... علي الطلاق بالثلاثة أنه سيفعلها.

تستبد بالمدرس رغبة خبيثة للانضمام إلى اللعبة والمشاركة في تأجيج الموضوع فينظر إلى شرّو ويقول:

- يا ساتر يا رب! لا يعقل هذا الكلام يا.. !

ولو استطاع إخراج أقراص الكبة بيده لأعطيته أنا بنفسي خمس ورقات.

يضحك شرّو بصوت هادئ بينه وبين نفسه، ثم ينظر إلى المدرس ويقول:

– يبدو أن نقودك تريد أن تطير من جيبك يا أستاذ!

تصل عدوى التحدي إلى المدرس فيقول:

– ماذا تعني؟ هل تستطيع فعلاً إخراج أقراص الكبة من القدر بيدك العارية؟ أنا لم أسمع ولم أر إلى الآن رجلاً وضع يده في الماء المغلي وأخرج أقراص الكبة!

يقطع شرو دابر النقاش فيشمر عن ساعديه ويمد يديه كمن يريد أن يري المدرس مهارتهما الخفية ويقول:

– هات أرني نقودك! أخرج نقودك لأخرج لك بيدي هاتين ما في القدر دون أن أبقي فيه ولو قطعة واحدة.

يمد المدرس يده إلى محفظة نقوده، يضحك الحاضرون، فيفهم شرّو أن الاتفاق سينفذ سريعا ويلتفت إلى زوجته شارِه قائلاً:

– ألم ينضج ما في القدر يا شارِه؟

تُفهِمه زوجته الجالسة بجانب القدر أن لا مزاح مع الماء الساخن، وأنه إن فعل ما ينويه فإن يديه ستحترقان لا محالة. لكن خمس ورقات من محفظة نقود المدرس تأخذ طريقها إلى كف شرّو.

جميع الحاضرين هناك يتحلقون ليروا كيف سيغمس شرّو يديه في القدر الذي يغلي فيه الماء ويخرج منه الكبة المحشية. تذهب شارِه مضطرة وتحضر صحناً واسعاً تضعه إلى يمين القدر.

يغسل شرو يديه بالماء أولاً ثم يقف فوق القدر. الماء يغلي ويتقلب ويصدر فقاعات كثيرة تجعل أقراص الكبة تتقلب فوق بعضها بعضاً. ينظر ميخو الناطور إلى شرو ويتوسل إليه قائلاً:

– أرجوك يا شرّو! دع هذا الاتفاق وتعال لتحلق شعري. أعرف أن يدك ستحترق ولن تستطيع الحلاقة.

يرد عليه شرّو:

– والله لن تخرج هذه النقود من جيبي مرة أخرى. وهي تعادل أجرة حلاقة خمسة رؤوس مثل رأسك يا ميخو!

وفجأة يغمس يده اليمنى في القدر ويخرجها ليضع قرص كبة في الصحن. يهز يده في الهواء ويبردها قليلاً. تتألم يده وأصابعه من سخونة الماء. تتعالى من فناء الدار ضحكات المتجمهرين وهمهماتهم. وما إن تخفت الأصوات ثم تعلو من جديد حتى تغوص يد شرو ثانية في القدر وتخرج بقطعة جديدة. تأتي زوجته بإبريق الماء وتقول:

– عقب كل غطسة صب ماء بارداً على ساعدك لكي....

يمد المدرس يده إلى الإبريق ضاحكاً، يخطفه من يد شاهِ ويضعه جانباً ثم يقول:

- لا والله لا أقبل. لا يجوز هكذا.... لا توجد إشارة إلى الإبريق في اتفاقنا.

مع كلام المدرس هذا تعلو وجه شارِه حمرة الخجل. تنظر إلى زوجها مشفقة على حاله ومتأملة انتهاء اللعبة وكأنه في رهان مشؤوم. يلمحها زوجها في هذا الوضع لكن رهانه يصبح لديه مسألة شرف. كان يريد حتى الآن أن يستعمل يده اليمنى فقط، لكن الألم الشديد يمتزج بالحرقة والرهان والنقود وخجل زوجته شارِه، ليصبح رغبة جامحة في الانتقام لكرامته فيغمس كلتي يديه في ماء القدر ويخرجهما. تتمتم زوجته بقلب مفجوع:

- والله إن الرجل سيحرق نفسه.... سيودي بنفسه إلى الهلاك.

يقوم ميخو الناطور ويرجو المدرس ويتضرع إليه قائلاً:

- أرجوك يا أستاذ. قل له يا أستاذ فليكف عن ذلك وليحلق شعري.

لكن المدرس لا يريد أن تذهب ورقاته الخمس هباء، فيقول:

- لا، لا. لا أقبل إن بقيت قطعة واحدة في القدر. هذا لا يجوز.

وحسب الاتفاق فيجب ألا تبقى حتى بقايا الطعام في القدر.

يُخرج شرو فتات الكبة أيضاً، يبلغ عدد أقراص الكبة المستقرة في الصحن ثمانية عشر قطعة بالتمام والكمال. يدا شرو مخدرتان حتى المرفقين، محمرتان لدرجة يخال المرء أنهما مسلوختان. تحمل زوجته إبريق الماء سريعاً وتصب الماء على يدي زوجها وتخبره أن عليه أن يدهنهما بمعجون الطماطم.

وسرعان ما يتم دهن يدي شرو بذلك المعجون ويلف عليهما الضماد. الضحكات التي تتوالى الآن ليست ضحكات نابعة من القلب بل يبدو عليها الحمق والبلاهة. حتى المدرس أيضاً تنتابه موجة من ذلك النوع من الضحك.

يتمتم ميخو الناطور متذمراً شاكياً:

- كنت أحس أن شعري لن يعرف الحلاقة هذا اليوم.

يبدو واضحاً أن الألم بدأ يظهر في يدي شرو وساعديه. يحرك أصابعه، يقبضهما ويرسلهما من شدة الوجع لكنه مع ذلك يقول مزهواً:

- عندما يتحدث المرء هذه الأيام عن المال ويلفظ كلمة نقود، فإن مياه الأنهار تتوقف عن الجريان...!

يتأكد ميخو الناطور أن شرو لن يقص شعره، بينما يصرخ هوتو المتشرد مظهراً جوعه ويتجه نحو الصحن المليء بأقراص الكبة. يأتي بها ويضعها بين الرجال المجتمعين في وسط فناء الدار. يبدأ الجمع بالأكل وهم يتضاحكون. في تلك اللحظة يظهر بَكو كارُوتْ ويقف في الباب منادياً المدرس قائلاً له بلغة تركية ركيكة:

– أكْمَكْ سِزْ دا و يا بِزْدا [4]. يا أستاذ.

يقوم المدرس عن الصحن ويقول وكأنه يشي بكلمة السر:

– جنود الليل يهبطون صوب الوادي.

ثم يمد يده إلى ظهره. يظهر تحت صداره الفضفاض شيء ما يشبه وتداً أو أنبوباً. ومع أن المدرس يقول كلماته تلك مموهة لكن الجالسين يدركون أن الليلة موعد صيد العصافير. وبعد أن ينضم بَكو كارُوتْ إلى الجماعة المتحلقة فوق المصطبة في فناء الدار، يخبر ميخو الناطور وهوتو المتشرد المدرسَ أنهما أيضا سيشاركان في رحلة الصيد.

ينتهي المجتمعون من تناول أقراص الكبة وقبل أن ينفرط عقدهم يتفقون على الاجتماع في بيت بَكو كارُوتْ.

(4) بالتركية في الأصل، تعني: الخبز منك ومني السمن.

مع حلول الليل يجتمع الرجال في بيت بكو كاروت، يتجاذبون أطراف الحديث حول النقيفات والمقاليع والرماية وشجر الحور والحجارة المدورة! ينفتح باب الغرفة التي تجمعهم. يدخل التلميذان تَمْ وبشير وما إن يلمحهما المدرس حتى يقول لمضيفه بكو كاروت:

– انظر! ها هم جنود الليل قد حضروا.

يضع جنديا الليل حقيبة بجانب معلمهما ويجلسان ثم يحدثانه بافتخار أنهما جمعا كثيراً من الحجارة المدورة من وادي الجن.

يضع المدرس يده في الحقيبة ويخرج حفنة من تلك الحجارة الصغيرة، يقول وعلامات الرضا والإعجاب بادية على وجهه:

– تفضل وانظر! لقد جمعاها من وادي الجن....!

يضع بكو كاروت يده في جيبه، يخرج نقيفة، ويختار حجراً من تلك الحجارة التي في كف المدرس ويضعه في جلدة النقيفة. يشد المطاط عدة مرات إلى أن يضع الجلدة مقابل عينه ويتجه للأعلى ثم يطلق قذيفته الحجرية، يهز رأسه الصغير من تحت قبعته الكبيرة القذرة ويقول:

– يا الله! ياللروعة! بالله عليكم انظروا إلى نقيفتي، إنها عروس، عروس والله.

بهذا المديح الذي يكيله بكو كاروت لنقيفته، يخرج المدرس مصباحه اليدوي ذا الثلاث بطاريات من تحت حزامه، يشعله ويوجه الضوء إلى جهة ما في الغرفة. يصبح الضوء إذ يضرب أعمدة السقف حلقات حلقات. يتجه المدرس ببصره إلى الأعلى ويدير المصباح محاولاً تجميع الضوء في بقعة معينة، إنه يدرك أن حلقات الضوء يجب أن تجتمع في نقطة واحدة لكي يتمكن من صيد العصافير. يتهامس تلميذاه لكن مم لا يتمالك نفسه فيهتف بصوت طفولي:

– حاول أن تجمع الضوء أكثر. ضيق الحلقات يا أستاذ فهذا أفضل...

يؤكد بكو كاروت على كلامه ويقول:

– صحيح ما يقوله الولد يا أستاذ، ركز الضوء أكثر فهذا أفضل.

يرمق ميخو الناطور إلى هوتو المتشرد، يضحك في سره ثم يعود ببصره إلى المدرس ويقول مشيراً إليه بيده:

– والله يا أستاذ لقد تطبعت بطباعنا.

يتقبل المدرس هذه الكلمات برحابة صدر، ولا يعتريه أي خجل، يشارك الآخرين مرحهم. بينما يقول هوتو المتشرد كمن يفك شيفرة ماء تلك القرية ويحلل تأثيره:

– إيه.... صار للأستاذ عدة سنوات وهو يشرب ماء قريتنا. أتريدون منه ألا يتطبع بطباعنا؟

في هذه الأثناء يتجهز كل شيء، النقيفات والحجارة والمصباح اليدوي. يسلمون بشير إحدى السلال، ويعلقون حقيبة الحجارة إلى رقبته بينما يحمل المدرس مصباحه اليدوي الطويل وينهض الجميع. يشد بكو كاروت مطاط نقيفته من جديد ويطلقه. يتجه إلى كل من ميخو الناطور وهوتو المتشرد ويخاطبهما قائلاً:

– وأنتما ستجمعان العصافير وتذبحانها وتضعانها في السلة.

يخرجون واحداً إثر الآخر وكأنهم سيهاجمون موقعاً ويقصفونه. بنفس هيجان وتوتر جنود يعتزمون على الإغارة ليلاً، يخرج الجمع. والحق فإن أعصاب المدرس أكثر توترا من أعصاب الآخرين. يبدأ الصيادون حربهم عند الشجرة وسط فناء دار بكو كاروت.

يوجه المدرس نور مصباحه إلى أغصان الشجرة. ينفذ النور من بين أغصان شجرة التوت ويقف في مكان ما. وبدون أن يحرك يده أو يرتعش أو يهز رأسه يميناً وشمالاً، يقول بفخر لبكو كاروت بصوت من اكتشف شيئاً جديداً:

– هاك يا بكو!... ماذا أفعل لك بعد؟.... صدره مثل....

شبح طائر يرقد على غصن في أعلى شجرة التوت. يصوب بَكو

كاروت نقيفته نحو شبح الطائر، يشد مطاطه ثم يطلق حجراً فيرتفع الشبح قليلاً في الهواء ثم يسقط على الأرض.

بمهارة صياد متمرس يخفض المدرس نور مصباحه ويوجهه صوب الطائر الذي ينتفض على الأرض. ينتفض قلب المدرس أيضاً فيندفع مسروراً إلى العصفور ولا يعطي مجالاً لآخر سواه بالتقاطه. يلتقطه سريعاً من الأرض ودون أن يسأل عن السكين يفصل، مثل بطل كرنفال الدم الاسباني. يستا دو سانكر. رأس العصفور عن بدنه، ينز الدم وتتناثر قطراته على أصابعه فيبحث بعينيه عن صاحب السلة.

لا تخطئ الحجارة التي تقذفها نقيفة بكو كاروت أهدافها. كل حجر يُرمى يصيب مقتلاً من عصفور بائس ويسقطه من عشه حيث يهجع. أسفل الشجرة تتمدد جثث أحد عشر عصفوراً مفصول الرأس مهجور العش. يتوجه المدرس إلى من حوله ويقول في لهجة صياد محترف:

– والآن علينا التحرك صوب أشجار الحور.

يتبع الصيادون كلام المدرس ويبتعدون عن المكان يرشدهم ضوء مصباحه اليدوي. يمر الصيادون أمام البيوت، ثم يلتفون خلف تلة القمامة وينحدرون بهدوء إلى غابة أشجار الحور، حيث يسيرون

بحذر وترقب خشية أن تهجر العصافير أعشاشها وتطير هاربة من الجلبة.

يلتفت بكو كاروت إلى المدرس ويقول له بصوت خفيض:

- والآن اسأل تلميذيك يا أستاذ! اسألهم كم بقي لديهم من الحجارة.

وقبل أن يبادره المدرس بالسؤال، يجيب تلميذه مم الذي يحمل حقيبة القذائف الحجرية الصغيرة وهو يمد يده الصغيرة في ضوء المصباح:

- باقي ثت حجرات فقط.

يصحح المدرس جملة تلميذه مم ويقول:

- باقي ست حجرات فقط.

ثم يتجه إلى بكو كاروت قائلاً له:

- أي بعبارة أخرى ما يكفينا لصيد ستة عصافير يا بكو.

دون أن تتخدر رقابهم يمشي الصيادون قرابة ساعتين بين أشجار الحور ونظراتهم معلقة إلى الأعلى يراقبون الأغصان العالية متتبعين حزم الضوء التي يطلقها مصباح المدرس اليدوي. ينال التعب منهم حتى أن أربع حجرات يطلقها بكو كاروت تذهب هباء منثوراً دون

أن تصيب ولو عصفوراً واحداً. فقد صار يخال الورق حائل اللون على الأغصان عصافير.

تقترب السلة التي في يد بشير من الامتلاء. يمسح بيده الصغيرة أحياناً ريش العصافير الناعم فيشعر بسرور بالغ. يتمنى لو كان صياداً مثل بكو كاروت فيتنهد من أعماق قلبه. يخرج صيادو العصافير من غابة الحور ويقفلون راجعين إلى منزل بكو كاروت. في طريق العودة لا يتحدثون إلا في مديح بكو كاروت. في مديح مهارته في الصيد ودقته في الإصابة.

وكأن ذلك صار عادة مزمنة لدى المدرس، فما إن يدخل فناء الدار من جديد حتى يوجه ضوء مصباحه اليدوي إلى قمة الشجرة فيرى عصفوراً. عصفوراً جاثماً على أعلى غصن في الشجرة. يرتجف العصفور باحثاً عن مكان أمين. يبدو جلياً أنه هجر عشه في غابة الحور ولجأ إلى الشجرة المنتصبة وسط دار بكو كاروت. يشد بكو كاروت مطاط نقيفته ويوجهها صوب العصفور قائلاً:

– يبدو أن عمر هذا العصفور المسكين قد انتهى وليس مقدراً له أن يعيش أكثر.

يضحك الصيادون بينما يعقب ميخو الناطور:

– لا يا بكو لا. لا أصدق أنك ستصيب هذا العصفور. والله

العظيم، لو أصبته سأحلق شاربي الأسود. يا رجل!

يرخي بكو كاروت المطاط المشدود، يترك العصفور ويتوجه إلى ميخو الناطور:

– لماذا يا؟ أهي فائضة عن حاجتك أم ثقيلة على شفتيك؟

مرة أخرى يتهامس الصيادون، يصوب المدرس ضوء مصباحه على بكو كاروت ثم يلتفت إلى ميخو الناطور ويقول له:

– حسناً. أنا أقول...... أنا أيضاً أقول إن استطاع بكو إصابة العصفور بأول حجر يطلقه كان لزاماً عليك أن تحلق شاربك. أما إن لم يصبه يا ميخو، إن لم يصبه فأنا سأحلق شاربي الأحمر هذا.

يتراهن الصيادون. يتشوقون إلى معرفة النتيجة. يتفق الطرفان ويخاطبان معاً بكو كاروت قائلين:

– هيا إذن!

يرد بكو كاروت على المتراهنين:

– الآن... إن أصبت العصفور وإن لم أصبه فإن شارب أحدكما سيطير! والله إنني لحزين على شاربيكما. لذا أقترح أن نترك الموضوع فلا أطلق حجراً على العصفور وبذلك تبقيان محتفظين بشاربيكما تحت أنفيكما ويبقى العصفور آمناً هذه الليلة.

لكن الصيادين صاحبي الشوارب لا يتنازلان بل يردان معا بعناد:

- لا، لا يا بكو. أنت أطلق نقيفتك. بالله عليك أطلق حجراً منها. نستحلفك بمزار مالا دينان إلا فعلت.

من جانبه يقوم هوتو المتشرد فيثير القوم أكثر، يحرضهم على المتابعة ويقول:

- نعم يا بكو. أنت ارمِ العصفور. ولكن قبل ذلك يجب أن يحلف الاثنان أنهما سيبران بوعدهما.

يحلف صاحبا الشاربين وبصوت واحد يميناً بمزار مالا دينان أنهما باقيان على نذرهما. وبهذا القسم الكبير يرتفع ضوء المصباح اليدوي من يد المدرس صوب الأعلى، يبحث بين أغصان الشجرة المنتصبة وسط فناء دار بكو كاروت. ما زال العصفور في مكانه. يشد بكو كاروت مطاط نقيفته، وقبل أن يقذف الحجر يتمتم قائلاً:

- واأسفاه على الشارب الأسود.

ثم يطلق الحجر.

مع صوت سقوط جرم على الأرض، يتناهى إلى مسامع الصيادين نشيج بكاء من جهة الباب. إنه طفل واقف عند الباب وتبدو عيناه

في ضوء المصباح تتوسلان معونة ما! يتوجه إليه ميخو الناطور ويسأله:

- ما بك يا سالو؟ لماذا تشهق هكذا؟

يشتد بكاء سالو ويقول بصوت حزين يفطر القلب:

- أبي.... أب.. أبي يموت!

ثم يتجه إلى بيت الشيخ.

يتجه صيادو الليل كلهم ما عدا مم وبشير إلى بيت جِنْدي والد سالو. التلميذان، وعلى حد قول المدرس «جنديا الليل»، يصعدان الدرج حاملين سلة العصافير لينتظرا عودة الكبار من بيت جِندي.

زوجة جِندي وأولاده يبكون عند رأسه. يصل صيادو الليل ويتحلقون حوله. من بين الجمع المحيط بالمريض يتعالى همس خفيض يقول:

- مرة أخرى سيطر عليه الجن. يا للمسكين. لم يشف منهم هذا البائس.....

جِندي المسكين لا علم له بقدوم الصيادين ولا يفهم ما يتحدثون به. يغطي اللحاف بدنه حتى ذقنه. عيناه مفتوحتان. يحدق في السقف. قلبه يدق بعنف كأنه متهم في قاعة المحكمة. يخاف من

تعرضه للتعذيب والألم. حبات العرق الصغيرة الناعمة تغطي جبينه كالبثور. حتى جلدة رأسه مبللة وتفوح منها رائحة مرض مجهول. فجأة يرتعش جسمه، يشحب لونه، يهز رأسه ويبدأ التوسل بقلب محترق وهو يقول:

– أرجوكم أتوسل إليكم، إن أطفالي صغار! أنتم أفضل منا فاتركوني. أنا مسكين من المساكين....!

ثم تختنق حنجرة المسكين جِندي بعبراته، يتحول لونه الشاحب المصفر إلى لون أحمر ثم تدريجياً إلى البنفسجي بينما هو يهز رأسه أكثر ويصرخ ويتضرع ويبكي:

– لا، لا. جُعلت فداكم! ابني سينو صغير. إنه فلذة كبدي... لا أستطيع!... لا أستطيع الاستغناء عنه. يا ويلاه! حسناً حسناً..... هاتوا أعطوني ذاك القدوم! سأطيعكم الآن..... هاتوا ناولوني ذاك القدوم.

مع كلامه ذاك يحرك جِندي يده من تحت اللحاف محاولاً إخراجها.

يرتمي ميخو الناطور وهوتو المتشرد عليه ويضغطان اللحاف بينما يحكم بكو كاروت قبضتيه على رأسه حتى لا يحركها كثيراً. يرى المدرس أن رأس جِندي يهتز في يد بكو كاروت كأنه زق مملوء بالماء

فيمد يد العون إلى بكو كاروت ويمسك بدوره برأس جندي، وهنا يلمح على قفا يديه غير المغسولتين أثر قطرات من الدم نصف جافة ونصف رطبة. إنها قطرات دم العصافير. وبين أصابعه يلمح زغباً ملتصقا بتلك الدماء.

تختلط رائحة العرق المتصبب نتيجة مرض جندي برائحة الدم على يد المدرس، فتصبح رائحة واخزة أمام أنفه، فيسحب بخوف يديه اللتين مدهما للمساعدة ويرى بعينيه، يرى بعينيه كيف يتلوى جِندي على نفسه مثل حزمة من العشب وينجدل، يسود لونه ويختنق، يضيق نفسه، لكن لا يصدر عنه أي كلام، يريد أحياناً أن يتفوه بشيء ما، فيفتح فمه بصعوبة بالغة لكن الكلمات الخارجة منه تبدو وكأنها قد قضمت بين أسنانه إذ أن لفظها غريب جداً. لفظها وإيقاعها غريب لدرجة أنها لا تشبه كلمات أي لغة أخرى. لكن أحد الحاضرين ينبري للموقف ويشرح ما يصدر عن جِندي من كلام:

– هذه لغتهم... لغة الكائنات القدسية الأفضل منا... لغة الجن.

ترتد زوجة جندي إلى الخلف وهي تضع ذيل ثوبها في فمها حتى تلتصق بالجدار. تتسع عينا المدرس. تختلط معلوماته القديمة

والحديثة، يلمع من علمه الخليط سنا برق ينير جنبات خياله ودون أن يلفظ كلمة واحدة يبقى مسمراً إلى مكانه فاغر الفم. تتصلب قدما جِندي ويداه. يهز رأسه يميناً وشمالاً. تنحرف شفتاه ويعوج فمه. ينتفض، يرتعش، ينقبض، بينما يضغط ميخو الناطور وهوتو المتشرد بكامل ثقلهما على جسمه محاولين منعه من الحركة.

في هذه الأثناء يدخل الشيخ الغرفة حاملاً القرآن الكريم. يسلم على الحاضرين بصوت جهوري ثم يقول:

- لا تقفوا كثيراً حول رأسه. هذا ليس حسناً...

ثم يحث الخطى بثقة ويتقدم مزهوا صوب رأس جِندي، يجلس على يساره، يفتح المصحف ويقرأ منه: «قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا. وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً. وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا. وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا».

..................

تختلط تلاوة الشيخ ببكاء سالو الذي تبعه في الدخول، فيصبح خليط صوتيهما عند أذني جِندي مثل أزيز نحلتين تحومان على زهرة.

في طفولته، نشب في القرية نزاع ذهب ضحيته رجل. وبعد الدفن بعشرة أيام أرادت الحكومة أن تكشف على الجثة وتقوم بتشريحها. فاتجه الجميع بمن فيهم الطبيب الشرعي وبعثة الحكومة والمختار والقرويون مع أطفالهم إلى المقبرة. من طبائع أهل القرية أنهم يلاحظون فوراً قدوم الشرطة أو الأطباء أو أي سيارة قادمة من جهة المدينة، فيتبع القرويون صغاراً وكباراً هؤلاء ويتفرجون عليهم. وحينما حفروا قبر القتيل من جهة رأسه، كان الطفل جِندي مع بعض أترابه هناك يتفرج على المشهد.

صاح الطبيب الشرعي في الأطفال المتجمهرين بحدة قائلاً: انصرفوا من هنا. هيا تنحوا جانباً. انسحب الأطفال قليلاً إلى الخلف وتنحوا جانباً، لكن جِندي لم ينسحب، بل بقي في مكانه وراقب كيف يحفرون القبر ويرفعون حجارة اللحد من فوق القتيل ويفصلون رأسه عن جسده دون أن يزلوا عنه الكفن. ثم يرفعونه هكذا مذبوحاً ليضعوه في صندوق خشبي. لكن الرأس المقطوع سقط من أيدي القوم وتدحرج ليستقر في قعر القبر من جديد وكأن القتيل يقول دعوني وشأني ولا تقلقوا راحتي هنا.

هكذا يروي القرويون. ومنذ تلك اللحظة أصبح ذلك الرأس علامة فاصلة مرعبة في حياة الصغير جندي. ذلك الرأس الذي كان

مليئاً بالحياة يبتسم له قبل أيام ويعبس في وجهه، صار مثل جلد مسلوخ تفوح منه رائحة الموت، يعلوه شعر دبق. وجه لا لون له يشبه عجيناً منفوخاً لفحته النار. نعم هذا الرأس، هذا الرأس أصبح منذ ذلك الحين كابوساً يجثم على صدر الطفل المسكين جِندي في أنصاف الليالي ويتراءى له في الأحلام، فيقفز كالملسوع من فراشه. يصبح الرعب دودة تنخر في روحه وقلبه، يكبر معه ذلك الرعب حتى يصبح أفعى سوداء.

حينما أصبح جندي شاباً وتزوج وأنجب أولاداً ، لم يذهب الرعب عنه بل صار ملازماً له حتى أن رأسه كان يرتجف. ذات ليلة من ليالي الشتاء ذهب جِندي برأسه المرتعش إلى المدينة كما هو دأب كل القرويين. وحينما عاد إلى القرية مستقلا إحدى الشاحنات، كان الظلام قد حل والثلج ينهمر.

وجب عليه أن يمشي مسافة ساعة ونصف سيراً على الأقدام حتى يصل المنازل. كان الجو بارداً ومظلماً وكان وحيداً بعيداً عن القرية. انتابته رجفة شديدة في الخطوات الأولى ظنها لأول وهلة من أثر ذلك الزمهرير لكنه بعد أن خطا خطوات أخرى تذكر في وحدته المظلمة المشاهد الأشد رعباً في قصص الطفولة التي كانت تحكى عند المواقد. انتفض قلبه مثل موجة فأخرج على عجل لفافة تبغ من

جيبه وسحب دخانها. ومن خلال حلقات الدخان لمح على مسافة ثلاثة أمراس منه زوج ذئاب رابض على الثلج ينتظره. لم يجد جِندي بداً من التوقف حيث هو.

صار من حيرته ورعبه يقدح النار من ولاعته من جهة ومن جهة أخرى يصرخ بصوت عال طالبا النجدة. ولما سمع بعض القرويين صرخات الاستغاثة هرعوا وهم يطلقون النار من بنادقهم صوب مصدر الصوت. وحينما وصلوا أخيراً إلى جِندي وجدوه لا يحير جواباً، كان قد فقد القدرة على الكلام لكنه يشير بيده إلى جهة ما، التفت القرويون المغيثون إلى المكان الذي يشير إليه جندي فلم يروا شيئاً سوى بقايا كومة حطب. عندها حملوه على أكتافهم واتجهوا إلى القرية.

منذ ذلك اليوم يسقط جندي طريح الفراش كثيراً كما حدث الآن. يصرخ مرعوباً، يستغيث، يبدو من كلامه أنه يتضرع إلى بعضهم. يتلوى ألماً ويعاني من عذاب دفين، يتصبب جسمه عرقاً ناعماً مثل القيح الذي ينز من رؤوس البثور. ولا بد أن يأتي شيخ أو ولي من أولياء الله لمعالجته مما ألم به، يرقيه ويتلو عليه في حالاته الصعبة من كلمات الله ما يفوق الحصر.آلاف من تلك الكلمات المقدسة تليت عند أذني جندي.

لم يعد صوت تلاوة الشيخ يسمع. يتمطى جندي في فراشه وكأنه يستيقظ من نوم عميق طويل، يفتح عينيه وينظر في من حوله بخوف، تتسع عيناه حتى أنهما تبدوان مثل طاستين ويبقى مشدوهاً لبرهة قصيرة، ثم يريد أن يفرك عينيه. يمد يده إلى عينيه، فتخرجان من تحت اللحاف مغلولتين. وما إن يلمح يديه المقيدتين حتى ينخرط في البكاء مثل طفل صغير. إنه ليس وحده من يتأثر بوضعه الأليم، بل وينظر إليه الحاضرون أيضا مدهوشين. تتيبس شفتا المدرس ويجف حلقه وتجحظ عيناه ويناجي نفسه قائلاً: من أين أتت هذه الحبال ومن غل بها يدي جندي! متى حدث ذلك؟.تتحول هذه الأسئلة لغزاً في خياله. ينزعج الشيخ، يغضب ولا يتمالك نفسه فيقول وهو منحن على المريض: «ما هذا يا رجل؟ لم يداك مغلولتان»، ثم يبدأ بفك الحبال التي تربط يديه.

تحاول ربة البيت أن تقول شيئاً لكن زوجها يبادر إلى طلب كأس ماء بينما يمسح دموعه. تُرمى عن يديه الحبال، فيرتمي على يدي الشيخ ويلثمهما، يضعهما على جبينه ويمسحه بهما. نشيجه لا يدع له مجالاً للكلام. يساعده الشيخ على التمدد في فراشه. يأتونه بالماء فيشرب ثم يقول:

– ماذا أقول لكم! أنا لا أكذب ولن أسود وجهي أمامكم وأمام

الله... لقد تحررت تواً من يد تلك الأرواح. أستطيع الآن.. أُستطيع إخباركم بكل شيء. لقد مضت علي سنون كثيرة وأنا في قبضة الجن الأفضل منا. وقفت أمام محكمتهم عدة مرات. كانوا يقولون لي: أنت قفزت ذات مرة فوق حفرة أمام كهف زونْجِك ودست رضيعاً لنا...لقد توسلت إليهم كثيراً وقبلت أيديهم وأقدامهم... أخبرت تلك الأرواح سنة بعد أخرى أن لا علم لي بشيء من هذا القبيل ولم ألحظ أي رضيع.... لكن كل توسلاتي وتضرعي راحت هباء. كانوا يضربونني أثناء المحاكمة، يعذبونني تعذيباً لا يخطر على بال أحد.... لست أدري. كانوا يأتون في أنصاف الليالي وينادونني فأتبعهم وأنا بين الحلم واليقظة.

ينظر جندي في هذه اللحظة بالذات في وجوه الحاضرين ويقول مخاطباً إياهم: «ألم تشهدوا أنتم أيضاً؟» يشير بيده إلى المدرس ويتابع الكلام:

- وخاصة أنت... أنت يا أستاذ... كم مرة أعدتني من المقبرة؟ ألم أقل لك حينها أيضاً.... الحقيقة لم يكن مسموحاً لي بالقول. لأن الجن كانوا يقولون لي: إياك أن تخبر أحداً بذلك، إياك».

مع كلمات جِندي هذه، يصبح للمدرس أيضاً نصيب في هذه الأحداث. يشعر بنفسه فجأة وكأنه ارتكب إثماً. تنتابه رعشة

باردة. يسافر بخياله إلى تلك الليالي السالفة التي كان يرى فيها جِندي متوجها إلى المقبرة وحيداً بلباس النوم أو قادماً منها ومتوجها إلى كهف زونْجِك. لكن شؤماً كشؤم هذه الليلة وأحداثها لم يخطر ببال المدرس إلى الآن.

إنه في هذه اللحظة، فقط في هذه اللحظة ومع ما يسمعه من كلمات جِندي يصبح فريسة خوف مجهول، يشنف أذنيه ويستمع بصمت لما يقوله جندي:

- نعم. كنت أذهب... كنت أذهب وكان الجن يجبرونني على نقل الحجارة لهم. حجارة بنوا بها سجنهم الجديد... كل حجارة السجن نقلتها أنا. وخلال جلسات المحاكمة كانوا يأخذونني إلى مكان قفر خال من كل شيء ومخيف. كان مكاناً... كيف أوضح ذلك.. يا إلهي!..... لا أظن أن هناك مكاناً يشبهه في دنيانا هذه. مكان مقفر... مظلم، تضيئه كرات غريبة تخطف بصري. لكن.... هؤلاء الجن... يا إلهي... صورهم غريبة... رؤوسهم مفلطحة مثل حبات البطاطا وأنوفهم طويلة معقوفة أو قصيرة فطساء، سيقانهم رفيعة... قرونهم حمراء ... وحينما كانوا يتكلمون، كان بإمكاني أن أعد أسنانهم.... كانت رائحتهم كريهة... كريهة جداً... يا لطيف... كانوا يضربونني لأجعل ابني سينو.....

هنا تخنقه العبرات فترتجف شفتاه، ينظر إلى ابنه سينو ويواصل الكلام:

– كيف كان لي أن أجعل ابني سينو.... أن.... أن أجعله قرباناً وأذبحه بالقدوم؟ إنه فلذة كبدي. الليلة أيضاً كان الجن يضربونني لكي أطيعهم وأذبح ابني. كانوا قد أحضروا قدراً من القطران ووضعوه على النار. كانوا يريدون أن يغطسوا رأسي فيه.... كانوا يريدون مني أن أتبعهم. إن العذاب الذي يذيقونه لا يشبه عذاب هذه الدنيا. لا يمكن تحمل تعذيبهم. حينها يريد المرء أن يفقأ عينيه لو أرادوا منه ذلك... يريد أن يفلت من بين أيديهم لحظة قبل أخرى مهما كان الثمن. لكنني كنت أعرف... كنت أعرف أن الجن سيذيقونني صنوف العذاب. لذلك... قلت... لشاهناز... قلت لها هيا قيدي يدي بالحبل واربطيهما.

يتناهى إلى المسامع صوت نشيج شاهناز. يرتمي جِندي من جديد على يدي الشيخ يقبلهما ويمسح على جبينه بهما، يرفع يديه إلى الأعلى شاكراً ثم يتنهد ويقول:

– لكن الحمد لله إذ رأيت هذا اليوم... أنا الآن رجل حر. لقد أطلق سراحي بقرار من رئيس الجن. حمداً لك يا رب...!

يمتلئ شيخ القرية إعجاباً وفخراً إذ قام بهذه المهمة المقدسة وأنقذ

مسكيناً مثل جِندي من بين براثن الجن. الشيخ مرفوع الرأس لأن أحداً ارتمى على يديه يقبلهما ولأن طائفة من الناس شهدت كرامات حصلت على يديه وهو يأمل الآن أكثر من أي وقت مضى أن تطبق شهرته الآفاق.

لكن المدرس حزين ويائس يلفه الصمت. لا يلتفت لا يميناً ولا شمالاً وكأن الخجل اعتراه من أمر ما. إنه مطرق يصغي إلى أحاديث الحاضرين. يفكر ويريد أن يفهم الموضوع لكنه لا يفلح فتحاصره أسرار كثير من الحوادث الغريبة.

في تلك الليلة يتعقب دَمو وميرو أثر معلمهما فيسيران صوب بيت شرو الحلاق، ثم بيت بكو كاروت، كما يمشيان عبر أشجار الحور إلى أن ترشدهم الأقوال الموثوقة بها إلى بيت جِندي. إنهما الآن عند باب الغرفة يخبران المدرس أن قطيع البقر قد عاد إلى القرية إلا أن عجله لم يعد مع القطيع. ويخبرانه أنهما سألا راعي بقر القرية عن حقيقة الأمر ثم ذهبا إلى ناحية كهف زونْجِك ثم الكرم العالي حتى وصلا وادي الجن ولكن لم يعثرا على عجله.

يرفع معلمهما رأسه ويوشك أن يقول لا بأس، لكن بكو كاروت يسبقه في الكلام بعد صمته الطويل ويقول للتلميذين:

– لا بأس. هيا ادخلا. هل سيفترس الذئب عجل الأستاذ؟ محال

ذلك فنحن ما زلنا في أول الخريف.

ينظر ميخو الناطور فيمن حوله ويقول كمن تذكر للتو أمراً هاماً:

- تحدثتم عن الذئاب. لقد تذكرت. اليوم بالذات تحدث رعاة قرية شِرْتَرُوتْ في الجبال... كانوا يقولون... كانوا يقولون إن كلابهم عوت حتى الصباح ودارت حول القطيع. قال الرعاة إنهم تحسسوا فلم يعثروا على شيء. كانوا يشكون في أمرين. يقولون إن لم تكن ثمة غارة للصوص على القطيع فإن عواء الكلاب يعني أنها رأت ذئاباً.

لكن بكو كاروت لا يتنازل عن رأيه، يلوح بيده ويقول:

- لا، لا..... ما أسرع ما أغارت الذئاب! الذئاب التي تغير باكراً هكذا، لا تستطيع افتراس العجول.

يشير جِندي من فراشه إلى الشيخ بيده ويقول متضرعاً:

- أرجوك يا حضرة الشيخ... أرجوك! أتوسل إليك أن تقرأ تعاويذك على أفواه الذئاب.... اربط أفواهها. إن العجل عجل معلم مدرستنا. معلم مدرستنا المسكين.

لا ينبس المعلم الخائف ببنت شفة، لا خيراً ولا شراً. ينظر حوله

بروحٍ يائسة وجسد مخدر ووعي مختلط، ينظر بعيون فارغة من كل حياةٍ. يسمع همهمة الحاضرين ولا يكاد يراهم، ثم يلمح في يد الشيخ حبلاً مثل رباط الأحذية.

يقول الشيخ: «عبر وادي الجن،... فوق تلة الذئاب،... أمام قرية شِرْتَرُوتْ،.... في ساحة الخيل.....». يعدد الشيخ أماكن كثيرة ثم يتلو ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾.

وبعد التلاوة يعقد الحبل الذي في يده، ينفخ في العقدة، ثم يبدأ من جديد تلاوته وقراءة أسماء الأماكن. ثم يعيدها سبع مرات متتاليات. يبدأ بالكردية، وبالعربية يختم ما يقوم به. يضع في ذلك الحبل سبع عقد محكمة وينفخ فيها سبع مرات. بهذا يتم ربط فم الذئب ويستقر الحبل ذو العقد السبعة في جيب المدرس.

ولكن مع ذلك فإن الحزن الذي يغزو وجه المدرس منذ مدة لا يغادره. يلفت قلق روحه نظر المجتمعين، لا يسألون عن السبب، لكنهم يرونه متيبساً باردا، شاحب اللون جاحظ العينين. يضع يديه بين فخذيه كمن يريد إخفاء شيء ويراقب بصمت شديد.

حتى حينما يحضر إبريق الشاي وتوزع كؤوس المشروب الساخن على الحاضرين، يبقى المدرس على حاله ساهياً يفكر. ومع كل مرة

يرفع فيها الكأس إلى شفتيه يشعر بتلك الرائحة الواخزة. رائحة عرق جندي ودم العصافير. يكفهر وجهه وتتغير ملامحه وتنطفئ الحياة في وجهه. لا أثر لسرور رحلة الصيد الليلي عنده. يفكر ويسترجع معلوماته عن أولئك الذين كانوا يمشون بجانب المقبرة في الليل متحدثين مع أنفسهم.

يريد المدرس أن ينهض سريعاً ويذهب إلى بيته، يتمدد على سريره ويعيد التفكير في كل شيء بعمق أكثر. ومع أن الصيادين يحاولون كثيراً إقناعه بالذهاب معهم إلى بيت بكو كاروت مثلما يفعلون كل ليلة ويشوون العصافير ويأكلونها، إلا أنه يأبى ذلك، بل يشعر بالغثيان إذ يسمع كلمات مثل .صافير.و.حم.و.كل. وبعد أن ينتهي الجميع من شرب الشاي يودعهم المدرس ويتجه إلى مبنى المدرسة برأس تتلاطم فيه أفكار شتى.

تلاطم الأفكار يصبح على طريق المدرسة عبئاً ثقيلاً على رأس المدرس فتصطك ركبتاه وتخور قوى قدميه فلا تقدران بعد على حمل رأسه بكل ما يتصارع فيه من أفكار غامضة. يشعر بوحشة غريبة ويعتريه رعب شديد.

من بعيد يتناهى إلى سمعه صوت يخالطه الألم، يشبه نعيب البوم، صادر من ظلام أشجار المقبرة فيقول في سره: هذا الصوت علامة

شؤم.ولكي لا يسمع علامة الشؤم هذه يرفع يديه إلى أذنيه محاولاً أن يسدهما. هنا تشعره حاسة شمه أن رائحة دم العصافير وريشها تختلط برائحة عرق جندي وتفوح من يديه. .ذه أمر وأدهى. يقول لنفسه. حينما يصل إلى جوار المقبرة يسمع نبضات قلبه الذي يدق بعنف. بل يسمع قلبه وهو ينطق قائلاً: إياك ثم إياك أن تلتفت إلى جهة المقبرة وتنظر إلى شواهد القبور وحجارتها».

يطيع المدرس أمر قلبه ولا يلتفت إلى جهة المقبرة. الموتى صامتون كأنهم أطفال نائمون في المهود، لا يعكر الصمت سوى النعيب المشؤوم الصادر عن حنجرة بومة في نواحي المقبرة. يتقدم المدرس بخطوات هادئة بجانب المقبرة حتى ليخال المرء أنه لا يريد إيقاظ أولئك الأطفال النائمين في مهودهم.

***

يفكر المدرس تلك الليلة وهو منطو على نفسه خلف زوجته في الفراش. يتأمل وينال منه الأرق. إنه واقع في حيص بيص، داخل في متاهة لا يعرف الخروج منها. يقول لنفسه: يا إلهي! ما أتعس الإنسان وما أغربه وأعجبه من مخلوق....»

كل ما تعلمه في حياته، وعاينه وشاهده وسمعه حتى الآن، يتقافز في رأسه واحداً إثر الآخر. يعود إلى تعاليم الحكماء والعارفين لكي يدرك ما هو كنه هذا المخلوق البائس وما هي حقيقة وجوده وكم وجهاً تحتمل حياته؟ أوجهاً أم اثنين، ألفين أم أكثر؟ لكنه لا يصل إلى أي نتيجة.

يلجأ إلى مقارنة الفانتازيا بالعلوم ويسترشد بهاتين الظاهرتين ليغوص في أعماق جوهر الإنسان. ينأى عن هذا العالم بسرعة شعاع ضوء يخترق الغلاف الجوي ويرحل إلى النجوم. وكلما أوغل في الفضاء، كلما اسود لونه أكثر وازداد غرابة عليه. يغوص في فراغ الكون الأسود، يدوخ ويفقد توازنه. يغلق عينيه على الظلام ويفتحهما على الظلام. يتحسس بيديه فيشعر بزوجته جانبه. يوقظها بصوت خفيض صادر عن حلق جاف. يطلب منها منشفة وحبتي أسبرين.

تخبره زوجته بعدم توافر الأسبرين في البيت منذ مدة طويلة وتنهض فتشعل المصباح ثم تأتيه بمنشفة وترى أن جسمه يسبح في بحر من العرق. يشعر بألم فظيع في رأسه. يتلوى ويتقلب في جميع الاتجاهات مثل زورق في خضم أمواج عاتية. يشعر أحياناً أن مبنى المدرسة يتقلب أيضاً. يطلب معونة زوجته، يطلب منها أن تساعده

في الخروج من الفراش ليتقيأ. وبعد أن ينتهي، يعود بمساعدتها إلى فراشه ويشعر بأن الألم قد خف في رأسه قليلا. يقول لزوجته: «لا تطفئي المصباح».

يتمدد في الفراش، ينظر بخوف ونظرات فارغة إلى السقف. تمسح زوجته العرق المتصبب من جبينه وتجففه بالمنشفة. تشعر بنار الحمى المستعرة في جسده فتدرك أنه مريض وتبادره بالسؤال:

– أين كنت؟ ربما أكلت طعاماً في قصعة صدئة. سأحضر قليلا من الحليب و....

ودون أن يحيد المدرس بصره عن سقف الغرفة يقول:

– لا. لم آكل شيئاً. لكنني بعد رحلة صيد العصافير.....

هنا تمتزج من جديد رائحة دم العصافير وريشها برائحة عرق جِندي فتزكم أنفه. يكفهر وجهه وتتبدل سحنته ويقول:

– يا نرجس. هات صابونة معطرة واغسلي يدي بها.

تحضر زوجته الإبريق والطست والصابونة المعطرة وتغسل يديه، تجففهما بمنشفة جديدة وتقول له برقة:

– أنت الآن أحسن. أليس كذلك؟

–لا.. قليلاً.. ذهبنا... كنت في بيت جِندي. كان مريضاً. وقد

سرد علينا حكاية مرضه. كان الجن قد أصابوه. دعي هذه القصة فهي حزينة.

تطن كلمة الجن والحوادث التي سمعتها نرجس في رأسها. يؤلم قلبها ويحزنها أيضاً سماع قصص أولئك الناس المصابين الذين أصابهم الجن فتقول:

– نعم. إن قصص أولئك الناس حزينة... إن المرء ليرثي لحالهم.

ينظر المدرس إلى زوجته بانتباه ويسألها بفضول:

– هل رأيت أنت أيضاً؟ هل رأيت أنت أيضاً كيف يسرد المسوسون حكاياتهم؟.... كان جِندي يقول: لم أكن قد سردت قصتي لأحد حتى الآن..إنه أمر عجب! لم يبح بالأمر حتى لزوجته. كان جنه قد قالوا له: «إياك أن تخبر أحداً!»

تتذكر نرجس كل ما روته خانِه من أحداث وتتصورها فتقول بوجه بريء الملامح:

– لا لم أشاهد أحداً يحكي قصته مع الجن. لكنني سمعت من العمة خانِه قصة فتاة مع الجن... يا إلهي!

تجلس قرب زوجها على الفراش وتروي له ما سمعته من خانِه بالتفصيل. المدرس يصغي بانتباه شديد وكأنه يستمع إلى أسطورة

من أساطير العالم السفلي. أحياناً يقطع سيل حديث زوجته بأسئلة مختصرة يبغي من ورائها فهم ما تقوله جيداً. تظلم عيناه فجأة، يشعر كأنه يسقط من مكان شاهق ويهوي في الفراغ. يصاب بالغثيان وتنتابه رغبة في التقيؤ. يدوخ ويفقد توازنه. يمد يده إلى ثوب زوجته ويقول بصوت نصف مخنوق:

– أشعر بالغثيان.... سأسقط، إنني أدوخ... لقد...

خائفة تمسك نرجس يديه وهي تتعوذ وتبسمل. تضغط على يديه، تنحني عليه وتقول:

– يبدو جلياً أنك أكلت من وعاء صدئ... سأحضر لك حليباً.

تحضر زوجته قليلاً من الحليب، تسكبه في بلعومه. وبدون أن يتحرك أو يتكلم ينظر إلى السقف نظرات خالية مذهولة. تسأله زوجته أحياناً إن كان قد تحسن أم لا، لكنه لا يحير جواباً. ينتابها الرعب وتخاف أن يكون زوجها وقع فريسة مرض عضال. وزوجها يئن من وقع الحمى الشديدة ويهذي. ترى نرجس أي عرق يتصبب من زوجها وتشم رائحة داء وبيل من ذلك العرق.

تحتار البدوية ولا تعرف كيف تتصرف. أحياناً تبلل المنشفة في الماء البارد وتضعها على جبينه. المدرس يواصل هذيانه بسبب الحمى. يتكلم وكأنه يعض لسانه ويلوكه.

لا تقدر زوجته على فهم الكلمات التي يلفظها. بعد برهة تأخذه موجة من النعاس فينقطع أنينه وتخف حرارة الحمى ولا يعود يهذي. وما إن تراه زوجته حتى تتنفس الصعداء قليلاً وترفع المنشفة المبللة عن جبينه وتتمدد خلفه دون أن تنام.

يسمع المدرس صوتاً فيما هو بين النائم واليقظان. منذ ليلتين والمدرس يسمع مثل ذلك الصوت، لكن الصوت هذه المرة لا يشبه صوت فجر البارحة. إنه لا يسمع نداء: نرجس، نرجس، نرجس.. كما أنه ليس واضحاً وضوح صوت سيابَند الأعور الممسوس. لا يأتي من الخارج، بل يصدر عن زاوية في الغرفة. صوت يأتي من تحت وسادته، بل يصدر عن أعماقه ذاتها ويقول بنبرة معروفة:

– كَفانوت يا بني! أعرف كم تتألم الآن.

هذا الصوت الذي يقرع أذني المدرس، يجمع ذرات وعيه المتناثرة ويعود به عشرين عاماً إلى الوراء. إنها نبرة صوت جدته. يسمع صوت جدته بعد وفاتها بعشرين سنة فيفتح عينيه قليلاً وهو يرتجف. ما يزال المصباح يضيء جنبات الغرفة منذ ليلة البارحة. زاوية الغرفة المقابلة له تبدو من أثر السخام غارقة في ما يشبه الضباب والدخان الشاحب. يشك فيما يراه بداية ويظن أن ما يتراءى له نابع من القذى في عينيه أو قلة النوم.

لكنه حين يفتح عينيه جيداً ويمعن النظر في الزاوية، يرى ما يشبه شعراً أشيب طويلاً يمتد من أعلى الزاوية إلى الأرض وأحياناً يتراءى له وجه امرأة عجوز عذبة الملامح بين ذلك الشعر الطويل الأشيب. تبتسم العجوز في وجهه وتهمهم ثم تختفي. يعض المدرس لسانه من شدة شكه في حاله. وحينما يشعر بألم في لسانه يدرك أنه ليس نائماً ولا يحلم. يقول لنفسه: «إذن فإن ما أسمعه ليس خيالاً بل هو صوت جدتي فعلاً». ولكي يتأكد جيداً مما توصل إليه، يهز كتف زوجته ويوقظها. ولكنه ما إن يحدق مع زوجته في الزاوية تختفي الجدة ويختفي ذلك الشعر الأشيب الطويل.

يتسمر المدرس من الدهشة وتجحظ عيناه. ينظر إلى زوجته ويقول لها يائساً متردداً: «الآن كانت هناك.... جدتي كانت هناك.»

تتفاجأ زوجة المدرس بهذه الكلمات وتقول في سرها: الرجل سيجن لا محالة». ثم ترد عليه بخوف:

– إن هذا يتراءى لك. لقد اشتد عليك المرض هذه الليلة.....

يرفع المدرس إحدى يديه أمام وجه زوجته ويقاطع كلامها سريعاً:

– هي أيضاً... جدتي أيضاً قالت ما تقولين الآن. لقد قالت لي: «أعلم كم أنت مريض الآن!....» لقد سمعتها تقول لي هكذا.

أتذكر ما قالته لي كلمة كلمة. لقد قالت لي حرفياً: «كفانوت يا بني! أعرف كم تتألم الآن».

تقوم نرجس وتستوي جالسة في الفراش، ولكي تبعد شبح هذه الليلة النحس عنها وعن زوجها وعن البيت جميعاً تتناول المنشفة بجانب زوجها، تمدها له وتقول:

– يا رجل! ربما رأيت ذلك في منامك. هل....

– أي منام!.... لقد كنت مستيقظاً.. أقول... إنني رأيت بعيني أيضاً....

ومع كلماته هذه، ينظر المدرس بخوف يخالطه الشك في زوجته، في سقف الغرفة وفي كل أنحائها. عيناه جاحظتان ولونه مصفر شاحب. يرفع يده فجأة ويشير إلى الجدار المقابل وهو يقول:

– انظري. ألا ترين؟ ألا تشاهدين جدتي؟ جدتيييييي.....!

يد المدرس ممدودة نحو الجدار المقابل، يصرخ على جدته، ترتمي زوجته فوقه وتبكي مرعوبة. يحاول المدرس القيام والتوجه صوب الجدار، صوب جدته، لكن زوجته ببطنها المنفوخة تتعلق بيديه وقدميه وهي تبكي وتصرخ وتستغيث وتتوسل إليه متذللة:

– لا شيء هناك... فديتك بروحي!..... يتراءى لك.....

والله لا شيء هناك.... يا ويلي.... واأبتاه! ما هذا الذي دهانا نحن المساكين هذه الليلة...!

يخلص المدرس نفسه من يد زوجته، يتوجه إلى الزاوية المقابلة لفراشه، يقف هناك ويرفع يديه إلى الأعلى وكأنه يستعد لالتقاط شيء هناك. يرفع يديه باحترام، بشوق، ينظر إلى أعلى ويبكي ويقول:

– فديتك يا جدتي! أتعرفين كم من السنين مرت؟.... قولي لي....

نرجس منكبة على وجهها في الفراش بعيدا عن الجدار وعن زوجها المدرس، تضع يديها على أذنيها وتبكي بخوف. تخشى أن يصاب زوجها بالجنون، تتمنى أن تنتهي هذه الليلة الظلماء ويبدأ الفجر. تسمع من زوجها ما يزيدها رعباً على رعب. زوجها المنزوي يرجو بصوت مخنوق:

– لا يا جدتي لا... لا تقولي ذلك!... لقد صار لنا عدة سنوات ونحن... كنا ننتظر هذا اليوم.... اليوم الذي... يرزقنا الله فيه بولد.... يا جدتي!

عندما ينطق لفظة «ولد» ترفع نرجس رأسها بحركة لاإرادية. وفي هذه اللحظة بالذات ينتبه المدرس لنفسه ويغيب عن عينيه مشهد جدته، فينظر بخجل وشعور بالذنب إلى عيني زوجته ويتوجه إلى

الفراش. يندس تحت اللحاف دون أن ينبس لها ولو حتى بكلمة صغيرة. تأتيه نوبة حمى وهو تحت اللحاف، يتذكر برأس دائخ، وكأنه عصفور نجا من الفخ، كل البلايا التي صادفته هذه الليلة، وكلما يتذكر واحدة تزداد ارتعاشاته. زوجته تجلس بجانبه على الفراش واضعة رأسها على ركبتيها، تنظر إلى زوجها المغطى بخوف وقلب يلفه اليأس. لا يغمض لها جفن.

يتصارع نور نهار جديد مع ظلمة الليل. في النهاية ينتصر النور ويعم الضياء أرجاء الدنيا. يتعالى صياح ديكة من أنحاء متفرقة. لا يمضي كثير وقت حتى يتناهى إلى المسامع لغط القرويين وصخبهم حول النبع وفي الطريق الموازية. وككل الأيام السالفة، تشرق شمس نهار جديد على القرية وسكانها. يجتمع التلاميذ في باحة المدرسة، لكن المدرس لا يأتي. يخبر زوجته وهو متمدد في فراشه أنه مريض ولا يستطيع القيام.

تنهض الزوجة وتذهب إلى الباحة، تخبر التلاميذ أن معلمهم طريح الفراش وتصرفهم إلى منازلهم. ينصرف التلاميذ ويذهبون إلى بيوتهم ويخبرون أولياء أمورهم أن المعلم مريض جداً جداً. للمرة الأولى لا يحضر التلاميذ دروسهم بسبب مرض المدرس.

ترتفع شمس الضحى. زوجة المدرس المريض تترك زوجها في

الفراش وتنزل إلى القرية كدأبها كل صباح. لكنها خائفة هذه المرة، منكسرة ومتكدرة الخاطر. كيتيمة مكلومة الصدر ترتمي في حضن خانهِ في فناء دارها وتبكي. ومع بكائها تسرد لها كل ما جرى لزوجها، ثم تضيف قائلة:

– منذ ليلتين، منذ الليلتين الأخيرتين... تنزل على رأسينا نحن المسكينين مصائب كبيرة يا عمة.

تحس العمة خانه أن زوج نرجس وقع فريسة مرض شديد. لذلك سرعان ما تتهيأ وترافق نرجس إلى بيتها. تعرجان في طريقهما على بيت سيفدين سليم وتخبرانه بمرض المدرس فينهض لمرافقتهما ويخرج الجميع، وما إن يلمحوه من بعيد حتى يبادر سليم سيفدين بأسلوب رجل عركته الحياة إلى القول: «لا، لا.... ليس الأمر كما تقولان... الحمد لله ها هو جالس تحت أشعة الشمس.»

في الجهة الجنوبية المشمسة من جدار مبنى المدرسة، يجلس المدرس. نظراته عالقة بشيء على مبعدة متر واحد من قدميه وهو غائص عميقاً في لجج التفكير. تبتهج نرجس إذ ترى زوجها خارجاً من فراشه، ولكي لا تلفت نظره وتشغله، تصعد هي وخانهِ درج مبنى المدرسة من الجهة الخلفية وتدلفان إلى الداخل.

بينما يتوجه سيفدين سليم صوب المدرس وهو يلقي التحية

كعادته من بعيد، يقف أمامه ويقول له: «أرى أنك مبتهج وأنت تتعرض لأشعة شمس الخريف. هذا النور يواتيك يا أستاذ!»

لكن الأستاذ لا يأبه بقدوم سيفدين سليم كما أنه لا يأبه بكل ما حوله. بل ولا يرد حتى على التحية التي ألقيت عليه تواً. ينخر الشك قلب سيفدين سليم بسبب تصرفات المدرس.

الشك الذي يتحول إلى يقين بكون المرض وبيلاً. فيمشي مرتاباً متردداً باتجاهه، يجلس قبالته. يستفسر عنه وعن أحواله وصحته. لكنه يبقى مركزاً بصره في تلك البقعة لا يحيد عنها ولا يعلم إلا الله أين يسافر بخياله وبم يفكر. لونه شاحب منطفئ، عيناه جافتان فارغتان من التركيز. يظهر خائر القوى.

يفهم سيفدين سليم من هذه الأعراض أن المدرس مصاب باليرقان. ومن خلال تجاربه كان يعرف أن المباغتة هي الدواء الشافي له. يعتزم سيفدين سليم على تجربة هذا العلاج فيرفع يده ويصفع المدرس فجأة على وجهه صفعة قوية. مع تلك الصفعة تظلم عيناه وفي تلك الظلمة يرى المدرس أسراب عصافير مقطوعة الرأس تطير وريشا يطوح في الهواء. يهوي أرضاً، يرتعش ويتلوى.

يترك سيفدين سليم عكازه من يده اليسرى وينحني ليمسك يدي المدرس ويدفع عنه هذه الريح المشؤومة لكنه يدرك أخيراً أنه لا

يستطيع ذلك بمفرده لأن المدرس يتلوى ويتقلب على الأرض، يضيق نفسه ويزرق لونه فيكاد يختنق، تتقلب عيناه يميناً وشمالاً وتصدر عن حنجرته حشرجة مخنوق. ينادي سيفدين: «خانهِ!....أسرعي بالبصل....!»

يتعالى صوت سيفدين سليم مثل استغاثة جريح ويصل أذني خانهِ ونرجس، الجلستين في الداخل، فتقفان في النافذة وتشاهدان ذلك المنظر. تقول خانهِ لنرجس: «هيا أحضري بصلة!»

تبادر نرجس إلى الخروج مسرعة، ثم تتسمر في مكانها، تخور قواها، تفقد توازنها فتضع يديها تحت بطنها المنفوح وكأنها تريد حماية جنينها. ثم تهرع إلى سلة البصل وتنكفئ راجعة ثم تسرع لتلتحق بخانهِ. وإذ تصل إلى سيفدين سليم تمد إليه بصلة وتحاول الإمساك بموضع ما من جسد زوجها كما يفعل الآخران.

يهرس سيفدين سليم البصلة بقدمه، يتناول قطعة منها ويدنيها من أنف المدرس الذي يتلوى ويشخر، تتصلب يداه وقدماه وتتخشبان. تدعو خانهِ نرجس كي تبتعد عن زوجها وتنأى ببطنها عن قدمي زوجها ويديه المرتعشتين. تقوم نرجس مرعوبة مترددة، وتنسحب باكية.

مع رائحة البصل يستسلم المدرس وتهدأ حركته، ينقطع شخيره،

يتنفس كأن حنجرته المسدودة قد انفتحت. ثم يتنهد تنهيدة طويلة ويعود إليه الوعي فيفتح عينيه.

يلمح أولاً قطعاً من الغيوم البيضاء تزين زرقة السماء. وعندما يدرك أنه خارج مبنى المدرسة ورأسه على ركبة خانِه بينما تنظر إليه زوجته وسيفدين سليم مشفقين، يرثي لحاله ويغالبه البكاء مثل طفل دون أن يعرف ما الذي جرى.

مساءا يتداول القرويون في كل زاوية وركن ما جرى للمدرس، يجتر الجميع تلك القصة ويرددونها:

– لقد أصيب بمس من الجان. هبت عليه ريحهم.

– ضربه الجن.

– لقد جُنَّ الرجل.

– وقع فريسة جني.

– حدث ذلك فجأة، و....

يتقاطر أصدقاء المدرس وأحبابه والفضوليون إلى بيته المرفق بالمدرسة، يتحلقون حوله، يسألونه عن صحته ويعبرون له عن رأفتهم وتراحمهم. يتحدث المدرس بخجل وخوف وتردد للحاضرين عن أحداث ليلة البارحة. يخبرهم أن جدته زارته بثيابها المهلهلة البيضاء،

ووقفت في زاوية البيت لتعلمه بأن مرضه وبيل.

يتوجه فقي دمسو إليه وكأنه على علم مسبق بهذه الأمور ويقول له بلهجة العارفين:

– هذا دليل على أنك من عباد الله المخلصين يا أستاذ... لذلك ظهرت لك هذه المرأة الطيبة... إن الأرواح الطيبة لا تظهر نفسها لأي كان.

يرفع المدرس رأسه بهدوء وينظر بخوف وقلق إلى زاوية البيت، ويقول خافضاً صوته:

– لقد أخبرتني شيئاً آخر. يا إلهي...!

يطرق ثانية، يشد شعره ويستمر في كلامه تخنقه العبرات:

– لقد قالت لي.... لقد أخبرتني أن ولدنا لن يبصر نور الدنيا....!

تنهض زوجته من بين النساء المتحلقات حول السماور، تضع يديها على بطنها وتقف خلف باب الغرفة المقابلة. يشفق الحاضرون عليها وتدركهم رقة فينظر بعضهم إلى بعض دون أن ينبس أحد بأي كلمة. لكن فقي دمسو يشير بيديه الاثنتين إلى المدرس ويقول:

– التزم الصبر يا أستاذ. لا تقنط. إن موت ولدكما... إن موته

وحياته في يد الله. وإن الله يفعل ما يشاء.

يفعل الله ما يشاء، ويفعل فقي دمسو ما يشاءه الحاضرون. يقرأ آيات من الذكر الحكيم مما تعلمه على يد الشيخ. يقرأها وينفخ على المدرس. ثم ينهض ويتمتم ببعض الرقى والتعاويذ على الجدران، ينفخ في زوايا الغرفة، ينفخ في أعمدة السقف، ينفخ في الفراش ويطلب أخيراً ورقة بيضاء. يسطر عليها بضع كلمات، يطوي الورقة بشكل تميمة مثلثة ويدسها تحت وسادة المدرس وهو يقول:

- نم الآن دون هم أو خوف.

بعد ذلك يبدأ القرويون بالتدخين دون هم أو خوف حتى ساعة متأخرة من الليل. يشربون الشاي، يخوضون في أحاديث دينية، يتحدثون عن الأرواح الطيبة والشريرة والمدرس يصغي إليهم صامتاً مثل آثم لا يعرف نوع خطيئته، يغوص في التفكير ويبقى ساهماً حتى بعد أن ينفرط عقد الجالسين ويذهبوا إلى بيوتهم.

يتعانق هو وزوجته تلك الليلة في فراشهما وكأنهما يريدان نسيان كل ما حدث. يتحسس المدرس بيده بطن زوجته وكأنه يريد حماية ولده، يمسح عليه ويبقي يده على سرتها إلى أن يخلد الاثنان للنوم.

وحينما تشرق الشمس، يعزو المدرس نومه الهني الخالي من الأحلام والكوابيس إلى تلك التميمة. التميمة التي دسها فقي دمسو

تحت وسادته التي ينام عليها. تناجي نرجس الله وتحمده على ليلتهما الخالية من الكدر والرعب.

لكن وحتى بعد انقضاء أيام أخرى، يبدو جلياً أن الرعب وكثيراً من الأسئلة المعلقة التي لم تجد جواباً لها، حفرت آثاراً عميقة في بيت المدرس.

ينتاب بطن نرجس أثناء تناول الفطور ألم شديد. ألم يمتد حتى ظهرها. إنها لا تشعر بثقل جنين واحد فحسب، بل تشعر وكأن عشرة أجنة وضعوا في جراب رطب وعلقوا بحبل إلى عمودها الفقري من الداخل. ألم ثقيل لا يطاق، يخترق أحشاءها فكأنها ترمى بالسهام. تقوم نرجس من مائدة الفطور، تمد يداً إلى ظهرها وآخر إلى أسفل بطنها الكبير. تجرجر نفسها إلى الفراش وتتلوى ألماً. يسرع المدرس إلى جهة النافذة ويرنو إلى باحة المدرسة، يمد رقبته نحو تلميذ من تلامذته ويصرخ بكلمات مختلطة:

– هيه! دَمو...دَمو!.... أسرع إلى بيت العمة خانِه... دعها تأتي حالاً.... أسرع.... هيا،هيا..!

يسرع دَمو إلى بيت العمة خانِه بينما يتجه المدرس صوب زوجته المتمددة، ودون أن يعرف ما يجب عليه فعله في حالات كهذه،

يتحسس بيده بطنها وساقيها. يأتي بشرشف يمده تحتها. تنزف زوجته دماً ينتشر على الشرشف.

آهات زوجته وأنينها تقيد حركة المدرس فيحتار فيما يجب أن يفعل. لا تمضي سوى برهة قصيرة حتى تدخل العمة خانِه الغرفة لاهثة. ومع قدومها يرق قلب نرجس فتقول باكية شاكية:

- دخيلك يا عمة... أنا أموت..!

- تقبريني يا روحي!... لا تقلقي ولا تخافي... ها أنذا بجانبك.

مع جملتها هذه، تسرع العمة خانِه إلى نرجس، تنحني عليها وتقبل وجهها. تمسح بحاشية ثوبها العرق المتصبب من جبينها. تنزع عنها السروال وتطلب مقصاً نظيفاً وماء ساخنا. يحضر المدرس طلبها، يعتريه الخجل، يتوجه إلى النافذة بتوتر من سيصبح عما قليل أباً. بصره معلق في الخارج وعيناه ترهفان السمع إلى ما يجري في الداخل، يسمع لبرهة أنيناً وكلمات عزاء، يسمع صراخ الألم، تسحب خانِه رأس طفل من تحت زوجته وتهتف في أذن الوليد الله أكبر.

الوليد الذكر لا يرد على النداء المقدس. تهزه خانِه بين يديها لكنه لا يصرخ. ترفعه بإحدى يديها من قدميه وتدلي رأسه إلى أسفل لكن الوليد لا يبكي كعادة الأطفال حين يولدون. تضرب بيدها الأخرى

على ظهره لكن الطفل يبقى بلا صراخ ولا يتحرك. تضعه خانِه وهو مغطى بالدم في مكانه دون أن تقطع حبله السري. تمدده على الشرشف، تمسح صدره وتضغط عليه، تضع فمها على فم الوليد وتنفخ في رئتيه لكنه لا يتنفس.

يغسلون الطفل يوم يولد. يقمطونه بالكفن ويدفنونه في مقبرة مالا دينان.

يتقاطر القرويون إلى مبنى المدرسة ليس فقط من أجل الوليد الميت بل لكل الأحداث المشؤومة التي يمر بها المدرس وزوجته في هذه الأيام الأخيرة. يمدون يد العون إلى نرجس، يعزونها بمصابها ويحاولون تبديد مخاوفها وهمومها هي وزوجها.

منذ زواجهما ينتظر المدرس وزوجته هذا اليوم. ينتظران ولادة طفل لهما. لا يعلم المدرس أن زوجته بذلت ما بوسعها لتحبل وقامت بمشورة من نساء القرية بعمل طعام وزعته عند مزار مالا دينان على أطفال القرية، وأنها تمددت تحت الشجرة المباركة عند المزار متمنية على الله متوسلة إليه بالروح المقدسة لصوفي دينو أن يجعلها تحبل بولد. وها قد ولد الطفل ميتا، فينسى المدرس مرضه ويحاول إيجاد تبرير لهذا الموت. يضرب أخماسا بأسداس، يتأمل

في الأسباب المختلفة لكل ما جرى له. حينا يقول في سره: «لا بد أن هذا ما يحدث للجميع. الولادة الأولى صعبة دائماً. لقد جاء قبل شهرين من موعد ولادته، لذلك فإنه... لذلك فإنه ولد ميتاً». وحينا يرى نفسه سبباً لموت الطفل فيعاتبها كمن ارتكب ذنباً عظيماً: «بسبب هذه الأيام الأخيرة المنحوسة فإن الرعب تمكن من قلب زوجتي البائسة، ولهذا أجهضت»، لكنه في نهاية الأمر يتوقف عند كلام جدته، جدته التي تنبأت له بموت طفله وقالت له: «لن يبصر وليدك النور.«

حوادث الأيام الأخيرة وما جرى فيها، تلك الليلة المشؤومة، صوت جدته وأقوالها، وولادة طفله ميتاً، كل هذا يشد المدرس إلى متاهة من المواضيع التي لم تخطر له من قبل، فيصمم على فحصها وإدراك كنهها.

منذ ذلك اليوم أحاطت بالمدرس في تلك القرية النائية غلالة من القلق غيرت روحه من جديد. فبدأ يبحث في موضوع الأرواح المقدسة مثل عالم دين. في زياراته النادرة إلى المدينة سأل علماء الدين والمشايخ وأصغى إلى كلماتهم بلهفة، بحث عن كتب تتناول الأساطير وحكايات التكوين والفناء، وقف طويلاً أمام رفوف

الكتب في المكتبات القديمة، وفي مدة قصيرة حصل على الترجمات والشروح والآراء التي تتناول الكتب المقدسة. وفي صفحات تلك الكتب وقعت عيناه على مبتغاه، عثر على أحاديث وقصص الجن، وبلغة قريتنا أحاديث وقصص المخلوقات الأفضل، قرأها، تأمل فيها، حللها، قارن كل الأساطير الواردة فيها عن الولادة والموت وسر وجود الكائنات فيه، بل وأعاد قراءة ما كان يعجبه منها أكثر من مرة. ليقارنها ويؤلف بينها فتمازجت في رأسه مختلف العقائد والأفكار.

من خلال ما اطلع عليه ودرسه من كتب توصل المدرس إلى أن تلك المخلوقات ليست أفضل منا نحن البشر! ليست أفضل من أي مخلوق آخر، إنها ملائكة نزل فيها عذاب الله، ملائكة آثمة، تسير خلف لواء الشيطان وتحارب البشر. تتخذ من الكهوف المظلمة والوديان السحيقة وفوهات المواقد وطناً لها.

تظهر للإنسان على شكل الجن والعفاريت ولأنها ذكية فإنها تستطيع الظهور بشتى الأشكال وتتقمص جميع المخلوقات، لتقدر على إيذاء الناس وقتلهم أيضاً.

خلال محاولات المدرس تنسيق منظومته الفكرية، تظهر له جدته في كثير من الليالي، تتحدث إليه، تسأل عن حاله، تبشره بالخير أو

تنذره من شرور الأمور، وفي كل ظهور لها يزداد رعب المدرس، يستيقظ في أنصاف الليالي فجأة من نومه ويردد في كل مرة: «اخرج أيها الشيطان» ويصرخ ولكن دون جدوى.

مع كل صرخة منه يسمع صدى ضحكة يابسة من ضحكات الساحرات، فينهض من فراشه ويصرخ محتداً بصوت عالٍ: «لقد سلبتِ منا وليدنا أيضاً يا ابنة الأبالسة». يركل الجدران بقدميه، يبصق على النافذة، يقع على الأرض مرعوباً مرة أخرى ويرتعش بدنه، يلوك لسانه كما في كل مرة، يعلو الزبد فمه ويتلوى مثل الملسوع.

ومع كل نوبة من هذه النوبات، يبحث من جاء لإسعافه عن البصل. يحضرون بصلة فيهرسونها ويدنونها من أنفه إلى أن يأتي شيخ القرية ويطبق عليه مما تيسر له من علم. يفتح المصحف عند رأسه ويتلو آيات عن الجن. يكتب كلمات الله على وريقات يجعلها تمائم. يعلق في رقبته الرقى والتعاويذ بأربطة ملونة لكي تنقذه من براثن المخلوقات النحس.

يفعل كل ما بوسعه لإنقاذه وتذهب محاولاته أدراج الرياح. يوماً بعد يوم تزداد حال المدرس سوءاً. يصل به الأمر إلى تنتابه نوبات المرض ليس في الليالي فقط بل في وضح النهار أيضا وأمام مرأى

الجميع. بكلمة أخرى يهرسون له رؤوس بصل أخرى ويكتبون له تمائم أقوى تأثيراً وتعاويذ أشد خضرة وحمائل جديدة. بل ويعلقون في رقبته عظم قص السلاحف.

يخوض القرويون في تفسير ما يعتري المدرس من نوبات المرض، يقول كل منهم رأياً يختلف عن رأي الآخرين وتفسيرهم. يقولون إن الجان الذين سلطوا عليه لن يتركوه فقد طال بهم الأمد ولا يمكن إبعادهم حتى ولو ببركة الكتب المقدسة. يصبح اسم كفانوت على كل لسان في القرية، يخترعون القصص والحكايات عنه وعن مرضه ويزيد كل منهم عليها شيئاً دون أن يتوصلوا إلى تشخيص يتفقون عليه. يقولون: «إن كثيراً من أهل القرية وقعوا فريسة سلطة الجان إلا أن حالة المدرس أصعب من كل الحالات».

والمدرس مشغول بنفسه وبأفكاره، لا يسمع أقاويل أهل القرية وتفسيراتهم. ينأى بنفسه عنهم. ينزوي في بيته وكأنه حلف يميناً بألا يغادره. لكنه بحكم العادة والوظيفة يدخل غرفة الصف مع التلاميذ ويجلس إلى الطاولة دون أن يلقي درساً عليهم. ينظر إليهم شارداً وبنظرات خاوية. وفي الأيام الأخيرة يطرح عليهم أسئلة باسم الدرس أو عوضاً عن الدرس.

ذات يوم وقبل أن يصرف التلاميذ إلى بيوتهم يسألهم: «ماذا

تريدون أن تصبحوا في المستقبل؟» تختلط عليه أصوات التلاميذ، الذين يجيبونه أنهم يودون أن يصبحوا صيادي عصافير، رواة قصص الجن والعفاريت، شيوخاً ورجال دين نابهين يقدرون على ربط أفواه الذئاب والأفاعي بالأدعية والرقي وطرد الجن من الممسوسين، يريدون أن ينالوا علما يجعل حبات القمح والشعير تتسلق الجدران، الدجاج يصيح كالديك، والسلحفاة تسبق الحصان ويجعل آباءهم خواتم في أيديهم.

في هذه اللحظة يخبره قلبه أن التلاميذ من نسل الجان والشياطين. ليس فقط قلبه يخبره بذلك، بل يرى ذلك أمام ناظريه، يرى أن أيديهم، رؤوسهم، أسنانهم، أفواههم وأنوفهم، آذانهم، تخفي جوانب خطيرة وأسرارا غيبية. يعتري المدرس صمت أبدي وهو مستند إلى الطاولة، يصبح رأسه فارغاً وتجحظ عيناه ويتيبس جسده. يصبح خفيفاً مثل قشة: إن سال الماء طاف وإن هبت الريح طاح... ثم تزيغ عيناه ويرتعش ارتعاشة مفاجئة، يهوي في فراغ حالك، يقع فوق أرض مظلمة مخيفة.

تطير أمام عينيه شرارات مبرقشة، وفي ضوء هذه الشرارات يرى مخلوقات غريبة مرعبة بأفواه معوجة وأسنان بارزة وأنوف معقوفة ترقص من حوله. تمد تلك المخلوقات أيديها بعضها إلى بعض ويأكل

أحدها لحم الآخر، ثم.... ثم ترتد إليه فتنشب أظافرها وأصابعها في عينيه لتقتلعهما، تمد أياديها إلى رقبته محاولة خنقه.

يهوي المدرس من كرسيه، يرتعد بجانب قوائم الطاولة، تصطك أسنانه، تتخشب أطرافه، يهتز رأسه، يربدُّ لون وجهه ويصبح أسود حتى ليخال المرء أن كل الدم الذي في بدنه تجمع في وجهه ويوشك أن يتدفق من عينيه. يتأوه ويتنفس بصعوبة بالغة.

ما إن يهوي المدرس حتى يهرب التلاميذ الصغار إلى خارج الصف. يحثون الخطى إلى منازل القرية، يتوزعون في أزقتها ويخبرون أهلها بما يجري للمدرس. يتقاطر الناس من الأزقة والزوايا والبيوت ويتوجهون جميعاً لنجدته.

حينما يفتح المدرس عينيه يرى سيفدين سليم، كوزى المجنون، فقي دِمسو وسيابَند الأعور الممسوس حاضرين لنجدته. يحملونه، ينفضون ثيابه، يأخذونه خارجاً ويجلس الجميع تحت أشعة الشمس مستندين إلى جدار المدرسة. المدرس صامت حتى بعد أن تأتي زوجته بأقداح الشاي. إنه مطرق الرأس كمن يخجل من شيء ما. يفكر في أشياء لا يحصيها العد. تتأثر زوجته، تشفق على نفسها وتخجل من زوجها، فتقول لنفسها المكلومة: «ما هذا يا إلهي! إنه يقع كل مرة ويجتمع عليه أهل القرية حتى يرفعوه من الأرض»...

القرويون المجتمعون حول رأس المدرس، يرشفون الشاي بهدوء ويتجاذبون أطراف الحديث. يخبر سيفدين سليم المدرسَ بأن عليه ألا يتضايق ويتبرم فالله كبير وسيشمله بعطفه ورعايته ويكلؤه بعنايته ذات يوم. يتناول سيابَند الأعور الممسوس آخر رشفة من الشاي ثم يضع الكأس الفارغة أمامه، يدق على صدره بكلتي يديه ويقول:

– أنا... أنا عانيت كثيراً من يد هؤلاء الجان... وما زلت.... ما زلت أعاني إلى الآن... لكن الحمد الله فقد تحسنت أحوالي... إنهم لا يفعلون الآن معي شيئاً سوى حرماني من النوم في بعض الليالي.... هذا كل شيء.... وفي الأغلب فإنهم لا يتعرضون.....



يرفع فقي دِمسو يده أمام سيابَند الأعور الممسوس، يقطع كلامه، يغمزه بعينيه ويقول:

– حباً في الله لا تتحدث عنهم. إنهم يحضرون حالما تدور الأحاديث حولهم... وليكن ما يكون فالله كبير، وهو العليم والقادر والبصير.

يبصر المدرس... يبصر فقي دِمسو يغمز الحاضرين بعينيه. يعلم أن تصرفاتهم هذه تقلل من شأنه وتهينه. إنهم ينظرون إليه على أنه مصاب بالجن. لكنه لا يقدر على شيء ويعجز عن التفوه ولو بكلمة واحدة حول الموضوع..... حول موضوع الجن.

لا يستطيع الادعاء أن الجن غير موجودين وأنهم محض خيال، لأنه هو نفسه يراهم بعينيه. يشعر من خلال عذاب روحه بوجود تلك المخلوقات، فينظر شزراً إلى فقي دِمسو، يحاول قول شيء لكنه يتمالك نفسه فيبقى صامتاً. يلتفت كوزى المجنون إلى فقي دِمسو ويقول بصوته المعتاد:

- والله يا فقي دِمسو إنك جبان!..... لماذا تخاف...ها؟ سنحمل الأحذية والنعال بأيدينا وسنواجه الجن والعفاريت بها و.... وسنعلنها حرباً ضد صالحهم وطالحهم... سنشعل جبهة المعركة وسنرى أمهات أي فريق يصبحن ثكالى!..... فقي دِمسو يخاف! والله إنه يعملها تحته!.... أليس كذلك يا أستاذ.... بالله عليك أليس الأمر كما أقول يا أستاذ! ألا يعملها فقي دِمسو تحته؟!

المدرس صامت. لا يجيب على الأسئلة ولا يهتم بها.... يحاولون استنطاقه إلى ساعة متأخرة من ذلك النهار وهم بجانب جدار المبنى. يحادثونه بلطف ويلقون على مسامعه كلماتهم بهدوء وروية، ثم يخبرونه أنه نأى بنفسه في الفترة الأخيرة عن القرية وأهلها وأن ذلك صار سبباً لشتى الأقاويل. يشرحون له باختصار تلك الأقاويل، يعيدون وجهة الحديث إلى موضوع الجن مرة أخرى. يقترح سيفدين سليم اقتراحاً على المدرس ويقول له بلهجة من عركته التجارب:

– تعال وأطعني، يبدو أن الجن غلبوك. تعال ولنذهب إلى مزار كِرْنَوازْ. لتلجأ إلى باب سيد المزار. إنك ترى بنفسك.... ترى بنفسك أنهم قد ثاروا عليك وتمكنوا منك ولا نفع بعد للتمائم والتعاويذ والرقى ولا حتى للآيات المقدسات. لم يعد لأي شيء تأثير على الجن وربما نفعتك زيارة إلى ذلك المزار.

يهز سيابَند الأعور الممسوس رأسه، لكنه يقول بنبرة تفاؤل يشوبها الحزن:

– ليشمله الله برعايته! أيعقل هذا! يترك الجن جميع الناس ولا يجدون أحداً أمامهم يصيبونه سوى هذا المسكين!

يدرك المدرس أن أهل القرية متفقون جميعاً على كلمة واحدة ... كلمة واحدة فقط أسندوا مهمة النطق بها إلى سيفدين سليم. لكن المدرس لا يطيعهم، بل يثور في وجههم فجأة، يثور ثورة عارمة فينهض واقفاً ويرفع يديه أولاً أمام وجه فقي دِمسو وكأنه يريد أن يصب جام غضبه عليه فيقول: «إنهم ليسوا أفضل منا. إنهم أسوأ من كل شيء ومن كل مخلوق».

يضغط رأسه بيديه، يلتفت حوله، يجمع في فمه شتى أنواع الكلمات البذيئة وينثرها على مسامع القرويين. ويخلص إلى القول:

– كم أنتم حمقى! تتحدثون دون علم عن تلك المخلوقات الرهيبة وتقولون إنها أفضل منا! إنها ليست أفضل حتى من الخراء!... من أين أتيتم بادعاء أن الجن أفضل منا؟ هيا أخبروني!... أيها التعساء، أيها الحمقى. أنتم مجانين وتدفعون الناس إلى الجنون ... قولوا لي بأي شيء هي أفضل منا؟ لا تترددوا ولا تخافوا.... هيا أخبروني..!

تراقب نرجس من النافذة ثورة زوجها بقلق وانكسار. سيفدين سليم صامت ولا أحد سوى الله يعلم سبب صمته. فقي دِمسو لا يحير جواباً، سيابَند الأعور الممسوس لا يتفوه بكلمة. وحده كوزى المجنون يرفع يديه مشيراً إلى فقي دمسو وهو يقول:

– لما تنزعج يا...؟ما يقوله الأستاذ صحيح.... الأستاذ يقول عين الصواب.... يا رجل.... الأستاذ ليس مجنوناً!

هنا يصبح المدرس مثل حفنة ملح ألقيت في النار. تتأجج نار غضبه، تمتلئ عيناه غضباً ودموعاً، يرتعش، يرتجف، يمد يديه إلى ياقة قميصه، يقطع الأزرار، تقع يده على التميمة المعلقة إلى رقبته فينزعها وبغضب جامح يرميها ما وسعت يداه خارج باحة المدرسة. يشير بيده التي رمى بها التميمة إلى القرية، يلتفت إلى الرجال الجالسين عنده ويصرخ فيهم:

– هيا قوموا.... دوروا في أزقة القرية وأعلنوا أن معلم المدرسة

قد جن. قولوا إن معلم المدرسة مصاب بداء وبيل لا برء منه وتحار فيه العقول. قولوا إنه يهذي، قولوا إنه ثار في وجه إبليس وأعوانه. هيا انصرفوا!... اصرخوا ما بوسعكم وقولوا إن معلم المدرسة قد رضع من لبن عجائز الجن. قولوا إن معلم المدرسة صادف أنبياء كذبة وآلهة قتلة.... هيا انهضوا وانصرفوا! انصرفوا وافعلوا ما أمرتكم به... افعلوا ذلك كي تعلم هذه القرية.... هذه القرية... قرية المجانين، الحمقى، الجن والأبالسة.

يرى الحاضرون بأم أعينهم كيف يرتعد المدرس إذ يتفوه بتلك الجمل والكلمات، وكيف يجلس في مكانه منهكاً يضع رأسه بين كفيه ويبكي.... يبكي بصوت عالٍ وقلب محترق كمن ارتكب إثماً عظيماً.

كلمات المدرس، تصرفاته، أوضاعه وبكاؤه، سرعان ما تنتشر في القرية كالصاعقة، تتردد في كل زاوية وركن عبارات من مثل: «لقد عصى من هم أفضل منا!...إنه– حاشاها– يشتم تلك الأرواح الفضلى بكلمات بذيئة... لقد لعب بالنار والموت.... لقد تطاول حتى على الله وأنبيائه.» يبدي أهل القرية صغاراً وكباراً أسفهم على المدرس، يرثون لحاله وحال بيته.

يقولون: «لقد كان رجلاً عاقلاً على شاكلتنا». يتابعون القول فيما بينهم وكأنهم يتنبأون لما سيؤول إليه أمره مستقبلاً: «لقد راح فيها المسكين.... لقد راح فيها».

يتكلمون عنه بتفصيل، يخوضون في شرح حاله كما اتفق ويقولون: «هذا ليس تصرف آدمي... الله وحده يعلم... لكن من الواضح أن يداً خفية..... يداً روحانية تقف وراء أحواله».

لكنهم لا يتبينون أمره، ولا يستوعبون كيف حدث كل ذلك فجأة! وكيف يمكن أن يحدث! ثم يقولون: «ليس من الصعب بالنسبة لتلك الأرواح المقدسة... ليس من الصعب عليها أن تجعل المرء خَرِفاً، ليس من الصعب عليها أن تصيبه بالجنون وتقتله. إن ذلك هين لدى تلك الأرواح الأفضل منا».

ويتبادلون الشروحات لتعليل ما ألم بأستاذ مدرستهم الذي كانوا

يجلونه: «كثيرون أصابهم مس من الجن، ونحن نعرف ذلك، نعرف أن أولئك الممسوسين لم يهبوا في وجه تلك الأرواح الأفضل منا عصاة ثائرين... إنهم لم يتفوهوا– حاشاها ثم حاشاها– بكلمات مقذعة في حقها. لا.. لم يفعل أحد ذلك، بل كان كل الذين يصابون بالجن دائمي الخوف، يتضرعون إليهم، ويرجونهم أن يتركوهم وشأنهم. يعني أن حال أحد من أولئك الممسوسين لم يكن كما عليه حال معلم قريتنا. لم يصبح أحد منهم عاصياً مثله.«

يمعن أهل القرية الفكر، يستشير بعضهم ببعض ويقولون: «إنه قال.... إنه قال بملء فمه إنه رضع حليب تلك الأرواح الأفضل منا. واضح أنه اندمج في جماعتها وأصبح ينتمي إليها». ثم يحصون من مات في هذه القرية خلال العام، وفي نهاية الأمر يصلون إلى نتيجة واحدة فيربطون بين كل تلك الأحداث وبين مزار مالا دينان.

يحذّر أهل القرية بعضهم بعضاً بخوف تخفيه أعينهم فيقولون: «في السنة التي يقضي فيها أحد أبناء القرية نحبه فإن مزار مالا دينان يطلب موت ستة آخرين.

كلنا نعرف ذلك. والآن وقد وصل عدد من قضوا نحبهم إلى ستة قبل أن تنقضي السنة، فإن مزار مالا دينان، ولكي يتم المكتوب ويصل العدد إلى سبعة، قد قدَّر لمعلم قريتنا أن يصل إلى هذه الأحوال».

آخرون من القرية يضيفون قائلين: «ثمة موت قادم يلوح في الأفق» ويتحدثون عن المدرس منذ الآن كمن يتحدث عن رجل قضى نحبه. يتحدثون فيما بينهم عن محاسنه وأعماله الخيرة فيقولون مثلاً: «كان كلامه عذباً كالسكر»، يخوضون في الحديث عن تصرفاته وينسجون قصصا وحكايات حولها. حتى أن شَفو الأعمى، عازف الناي في مضافة القرية، يحاول تحويل قصة المدرس إلى لحن ينفخ موسيقاها في ثقوب نايه، لحن يتحدث عن رجل عاثر الحظ.

ومع ذلك كله فإن أهل القرية – وبأمل أن تتحسن أحوال المدرس – يذهبون لعيادته ليلاً نهاراً. يسألون عن حاله، يدعونه إلى زيارتهم والتجول في القرية كسابق عهده، يرجونه زيارة مضافة القرية ليمازح الناس ويضاحكهم، يذهب معهم إلى صيد العصافير. إنهم يعلمون أن شتاء قاسياً ذا ثلوج وعواصف ينتظرهم، لذلك يعدون العدة للخروج كما دأبهم كل عام حيث ينتظرون من الليل وحتى طلوع الفجر أملاً في اصطياد الثعالب ويدعون معلم قريتهم للمشاركة في تلك الرحلات.

لكن لا. المدرس لا يفعل ما يأمله القرويون وفي أغلب الأحيان لا يصغي إلى أحاديثهم ولا يلقي إليهم بالاً ولا يهتم بزياراتهم. لقد كان سابقاً يقع في بعض الأحيان صريع نوبة من الحالة التي يعانيها

فيرتعد ويرتجف ويسقط على الأرض، لكن الحالة ساءت الآن كثيراً فلا يعود إليه الوعي إلا نادراً ليشعر بما يجري له، ويعتريه الخجل كثيراً مما آل إليه أمره.

لقد تحول خجله إلى رعب، إلى عناد ويظهر في تصرفات غريبة. ومثل أولئك المرضى النفسيين الذي يخافون كل الناس وكل الأشياء ويهربون منها، مثل أولئك المشايخ الذي يتدثرون بشرشف كبير في انتظار أن تنكشف الأسرار لهم، مثل أولئك الأنبياء المعتصمين بالكهوف منتظرين إشارة من الله، فإن المدرس أيضاً ينأى بنفسه من القرية ويعتزل أهلها. وبعبارة أهل القرية فإن جدار المدرسة أصبح له بمثابة طوق اللعنة بالنسبة للشيطان فلا يخرج منها.

إنه دائم الإطراق، يتجول في الباحة، يبصق على الأرض، يبصق على غرفته، يضم شفتيه ويرفع رأسه باتجاه الأعلى ليبصق باتجاه السماء. ومثل عجل تفاجئه ذبابة يلتفت أحيانا وعلى حين غرة إلى الوراء مذهولاً.

تصبح هذه التصرفات عادة له وطبيعة لا تفارقه. يهمل عمله وأحياناً كثيرة لا يعرف كيف يفتح باب الصف للتلاميذ. يجمع التلاميذ في باحة المدرسة ويشغلهم بلعبة ما، يهيج بعضهم على بعض، يدعهم يتعاركون ويتشاجرون، يركض حولهم ويصرخ فيهم.

يدرك أهل القرية أنه لم يعد يصلح للعمل معلماً للتلاميذ، ينفضون أيديهم عنه ويقطعون كل أمل فيه. ومع ذلك يراقبونه لعل الله يشمله برحمته ويعافيه فيتركه الجن يوماً ويرحمونه فيعود كما كان سابقاً المدرس كَفانوت.

في أحد أيامه الأخيرة يقوم المدرس كالعادة ويجلس إلى مائدة الفطور. ترى زوجته أنه مطرق كعادته لكن طريقة جلوسه إلى المائدة غريبة، فهو ينحني على الطعام الذي أمامه ويرمقه باهتمام دون أن يمد يده إلى شيء منه. تظن زوجته نرجس أن رياح الجن توشك أن تهب على زوجها من جديد، لذلك فهو مطرق ينتظر. تحدس أن هذه المرة ليست كالمرات السابقة بل هي أمر وأدهى، فتقول له: «إن كنت تشكو من ألم في جسمك فأنا... أنا سأذهب لأصرف التلاميذ إلى بيوتهم».

يرفع المدرس رأسه فجأة، ينظر في زوجته كمن عاد بروحه من مكان قصي ويقول لها: «لا، لا.... جسمي.... فقط..... غصت في التفكير... حاولت أن أجد لعبة... سأري التلاميذ اليوم لعبة جديدة وسألعبها معهم».

يقوم بعد تناول الفطور عدة لقمات حاملاً تلك الأفكار الثقيلة ويخرج إلى باحة المدرسة. التلاميذ مجتمعون هناك كالعادة في كل

يوم دراسي. لا يأمرهم بدخول الصف بل يخبرهم أنه سيلعب معهم لعبة مبتكرة لم يلعبوها إلى الآن. يدعوهم لينصرفوا إلى بيوتهم ليحضر كل منهم طاقية أو قبعة. ثم يضيف قائلاً: «ليس مهماً أن تكون القبعة عتيقة أو جديدة».

ينصرف التلاميذ مسرورين إلى بيوتهم ويتوزعون في كل ركن وزاوية من القرية. يبحثون بين أمتعة أهلهم وثيابهم ويسألون جداتهم وأفراد عائلاتهم عن قبعات وأغطية رأس، والتلميذ الذي لا يرى أحداً في المنزل يبحث بنفسه وما إن يلقى شيئاً حتى يقفل راجعاً إلى باحة المدرسة.

لا يمضي كثير وقت حتى يعود التلاميذ وفي أيديهم أنواع مختلفة من القبعات والطاقيات وأغطية الرأس الأخرى. يتقدم المدرس تلاميذه ويقودهم مثل قطيع من العجول إلى الساحة الترابية بجانب المدرسة. يجمعهم على شكل حلقة ويقف في منتصفها ليشرح لهم اللعبة الجديدة وقواعدها وأصولها فيقول:

– سنرمي هذه القبعات والطاقيات إلى أعلى. سنرميها إلى أعلى بقدر ما يمكننا ذلك. سنرميها في السماء. سنرميها ونصرخ مع كل رمية ما وسعنا الصراخ. سنصرخ ونقول: «ها قد جاءت، جا.... جا.... جاءت. جاءت ملائكة السموات وحورياتها» والقبعة

التي تقع على الأرض أولا نضع لها اسماً... سنقول إن هذه القبعة مشؤومة، سنقول إنها جنية وشيطانة وسنرجمها بالحجارة. سنقطعها إرباً إرباً.

مثل قائد عسكري يقف أمام مجندين أغرار، يقف المدرس أمام تلاميذه ويشرح لهم قوانين اللعبة الجديدة وطريقتها. هنا ينتاب التلاميذ الذين أحضروا قبعات جديدة الندم والخوف من عقاب آبائهم وإخوتهم لكنهم مع ذلك يطيعون معلمهم ويبدأون اللعب.

تطير القبعات في الهواء وتهوي إلى الأرض. التلاميذ يتراكضون لالتقاط قبعاتهم كي لا تقع على الأرض.

ينضم إليهم المدرس ويحذو حذوهم. صرخات جنونية تتعالى من الساحة الترابية. يتردد صدى هذه الصرخات في أنحاء القرية جميعاً، فيتقاطر القرويون مذعورين إلى الساحة. يشاهدون المدرس خارج فناء المدرسة لأول مرة منذ إصابته بتلك الحالة، يصرخ مع التلاميذ خلف القبعات مثل ثور بين قطيع عجول.

في البداية ينشرح صدر القرويين ويضحكون إذ يرون المدرس كسر طوق عزلته وخرج يلهو مع التلاميذ. لكنهم ما إن يروا رجم القبعات بالحجارة حتى يدركوا أن هذا الفعل ليس من أفعال العقلاء. خاصة حين يرى الحاج خوبو كيف يرمي حفيده طاقيته في الهواء

فتلمع نقوشها الخضراء في وهج شمس الخريف، تلك النقوش التي تشير إلى أن تلك القبعة ذكرى رحلة حج إلى الديار المقدسة. ثم يرى القبعة تهوي إلى الأرض فيجتمع عليها المدرس وجميع تلاميذه ثم يرجمونها بالحجارة. هنا تثور ثائرة الحاج خوبو ويبلغ به الغضب منتهاه، فيندفع إليهم كمن يتقدم صوب معركة ويقول غاضباً محتداً:

– هيه...تعالوا وشوفوا! هيه يا أستاذ!...هل أنت ولد صغير يا أستاذ؟.... ألا تخجل؟... ما هذا الذي تفعلونه؟... أهذا درس يا رجل؟... لقد جننت يا أستاذ... لقد جننت!

في غمرة ثورته تلك، يصل الحاج خوبو إلى حفيده، فيرفعه إلى الأعلى ويرميه مثل زق ماء. ينفضّ التلاميذ عن طاقيته. فيرفعها الحاج من بين كومة الحجارة.

تبدو كأن حصاناً قد اجترها ولاكها في فمه. لقد أصبحت مليئة بالثقوب بسبب ضربات الحجارة. يهز الحاج خوبو رأسه حزناً، يركل حفيده المتمدد على الأرض بعنف ويقول:

– فلتسقط عن ظهر الحمار يا ولد!... فليقتلك سم الأفعى ذات السبعة رؤوس يا ولد! هذه الطاقية المقدسة!... فلتكن أنت الميت رقم سبعة يا ولد.

من كثرة الركض واللعب يلهث المدرس مثل حصان. يتقدم على مهل صوب الحاج خوبو، يمسح العرق المتصبب على جبينه ويقول:

- لا.. يا... حاج... لا... لا تغضب... إنهم... أطفال... فليلعبوا..

يتوجه الحاج خوبو إلى المدرس مخاطباً إياه قائلاً:

- لم أشاهد لعبة كهذه يا أستاذ!... أهذا لعب؟... ألـ.... ألـ.... ألعاب كهذه!!

يرفع المعلم يده ناحية الحاج خوبو ويقول له:

- ما أدراك أنت يا حاج خوبو!.. هذه لعبة جديدة للأطفال... إنها شيء مبتكر بالنسبة لهم.

يكفهر وجه الحاج خوبو، يمتعض، يهز رأسه مستنكراً، يلوح بيديه ويقول:

- هذه اللعبة لعبة مجانين..... لقد جننت وانتهى الأمر...!

يتراشق الحاج خوبو والمدرس بالكلمات، ثم يندفع أحدهما باتجاه الآخر، يمد كل واحد منهما يده إلى ياقة خصمه. يتجاذبان. وفجأة يقع ساعد الحاج خوبو في فم المدرس، فيصرخ صرخة هائلة.

يتدخل القرويون بينهما ويفصلونهما. يريدون أن يطفئوا نيران غضبهما، لكن كل منهما يمد عنقه تجاه صاحبه، يحاول الوصول إليه بيده. الفريق الذي يمسك بالحاج خوبو يهمس في أذنه:

– خفف من غلوائك قليلاً يا حاج. عليك أن تعي أنه.... أنه مدرس، وأنه ضيفنا. ليس من قريتنا.

لكن الحاج خوبو يتوجه نحو المدرس ويمد رقبته المجعدة، يرفع ساعده الجريح في وجهه ويصرخ بصوت عال:

– فليكن من يكون!... تباً له!... كل من يأتي إلى قريتنا ويشرب منها كأس ماء يصبح أسوأ منا... ولكن ماذا كان سيحل به لو..... لو شرب مثلنا... لو شرب مثلنا على مدار سنوات ماء هذه القرية بالسطول. أما كان سيلعب بالخراء؟

تزداد ثورة المدرس حدة، فيهجم على خصمه لكن أيدي القرويين تمنعه من تحقيق مرامه ولا يتمكن من بلوغ الحاج خوبو. يحاول المستحيل للإفلات من قبضة القرويين لكن دون جدوى. يمتزج غضبه بحزنه، يكبر غضبه ويتضاعف آلاف المرات، يمد يده إلى ياقته فيقطع الأزرار.

يضع ساعده في فمه ويعض عليه. تسيل الدماء حمراء كما تسيل من جرح ساعد الحاج خوبو.

تلك السنة، وقبل أن تسقط الثلوج في أواخر الخريف يتجاوز خبر ما آل إليه وضع المدرس كفانوت حدود القرية ويصل إلى المدينة البعيدة. حتى أن كبار المسؤولين يحاطون علما بذلك.

## نبذة عن المؤلف:

ولد في قرية ارخانيه قرب ديار بكر (تركيا) عام 1957. يعيش اليوم في السويد.
من مؤلفاته: سميرنوف (قصص) 1991، متاهة الجن (رواية) 1994، ابيلوغ (قصص) 1998، كلمات آثمة (رواية) 2007، علاوة على ترجمة أعمال بوشكين ودستويفسكي إلى الكردية.

## نبذة عن المترجم:

كاتب ومترجم بالعربية والكردية. مواليد 1965 عين العرب/ سوريا. مقيم منذ 2000 في ألمانيا. حائز على جائزة القصة الكردية القصيرة 1993، وجائزة الشعر الكردي 2012.

صدر له إلى الآن أربع روايات كردية هي: مدينة الضباب. دياربكر 2003. ثلاث خطوات إلى المشنقة. اسطنبول 2007. ميرنامه. اسطنبول 2008. مارتين السعيد. اسطنبول 2012.
وله في حقل الترجمة إسهامات عديدة أهمها: ترجمة ملحمة «مم وزين» إلى العربية وصدرت في عدة طبعات في بيروت ودمشق ودهوك. و«عادات الأكراد» و«ميرنامه» اللذان صدرا عن مشروع «كلمة» أبو ظبي 2010. ومن الفارسية إلى العربية ترجم «الحديقة الناصرية في تاريخ وجغرافيا كردستان» أربيل 2002. إلى جانب دواوين شعر وكتب أخرى.

## متاهة الجن

المدرس الشاب كفانوت، ابن المدينة الكبيرة، يصل إلى القرية النائية برفقة زوجته البدوية نرجس للعمل.. في هذه القرية تلتقي إذاً ثلاثة عوالم. مدني متحمس يحلم بتغيير وجه العالم، وبدوية بريئة تهجر مضارب الأهل لتقطن قرية غريبة. قرويون مضيافون غارقون في متاهة من الجهل وقصص الجن. إن تشابك هذه العوالم الثلاثة في مكان ضيق ملؤه الخرافة قد يؤتي ثماراً يانعة. لكنه من جهة أخرى قد يؤدي إلى الدمار.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

كلمة
KALIMA




هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY


9 789948 171836